من التراث الأدبي

للمغرب العربي

دكتور
عبده عبد العزيز قلقيلة
الأستاذ المشارك بكلية الآداب
جامعة الرياض

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

من التراث الأدبي
للمغرب العربي

دكتور
عبده عبد العزيز قلقيلة
الأستاذ المشارك بكلية الآداب
جامعة الرياض

الناشر
عالم الكتب
٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة
١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وقل رب زدنى علما »

صدق الله العظيم

الفهرست

الطبعة الاولى : ١٩٧٩
مـــطابع : دار الهنا ـ القاهرة
الناشـــر : عالم الكتب
تم الطبع فى ١٠/٩/١٩٧٩

الإهـداء

هذه الدراسة مهداة الى معهد الآداب والثقافة العربية بجامعة قسنطينة : مديرا وأساتذة وطلابا وأتمنى أن تكون نواة لدراسات أخرى تأتى على أثرها وفى أعقابها .

عبده عبد العزيز قلقيلة

القاهرة
غرة رمضان المعظم سنة ١٣٩٨ هـ
٥ من اغسطس سنة ١٩٧٨ م

١ ــ عنوان المرقصات والمطربات :

هذا الكتاب « عنوان المرقصات والمطربات » من تأليف رئيس الأدباء وعميد الفضلاء نور الدين على بن الوزير أبى عمران موسى بن محمد ابن عبد الله بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن عمار بن ياسر ·

المتوفى فى شعبان سنة ٦٧٣ هـ بدمشق والمعروف بابن سعيد المغربى قال صاحب « فوات الوفيات » عنه :

« ورد من المغرب وجال فى الديار المصرية والعراق والشام وجمع وصنف » وهو صاحب كتب كثيرة منها :

[المغرب فى حلى المغرب] و [المشرق فى حلى المشرق] و[الجغرافية] و [ملوك الشعر] ·

و [عنوان المرقصات والمطربات]

وهو الكتاب الذى نتشرف اليوم بعرضه وتحليله فى هذه السلسلة التى نستهلها به ·

وابن سعيد فيه على مذهب الجاحظ وابن قتيبة والقاضى الجرجانى وابن رشيق القيروانى وغيرهم ، فى انصاف المحدثين ، وانزالهم منازلهم التى يستحقونها فى خط سير الأدب ، بصرف النظر عن أزمانهم ، أى انه مع الجودة تقدم الزمن بها أو تأخر ، وضد الرداءة تقدم الزمن بها كذلك أو تأخر ·

يصافحنا هذا الرأى له فى خطبة كتابه بقوله :

« فان الله جل وعلا جعل قيمة كل امرىء ما يحسن ويقول ، وشرف البلاغة بأن تأخذ الأفهام منها على قدر القرائح والعقول، ولم يمكن من أعنتها من هو عن مجال رجالها قاصر ، وحباها فى كل عصر بأكرم ولى وأعز ناصر ، ولم يقصر الفضل على من تقدم » ص ٦ ·

ولا يعجبه ما ذهب اليه عنترة من استغراق القدماء لمعانى الشعر

بقوله فى صدر معلقته : هل غادر الشعراء من متردم ؟

فيدفعه بقول القائل : —

فلو كان يفنى الشعر أفنته ما قرت
حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب

ويقول ابن شرف :

عشى الناس بامتداح القديم
وبذم الحديث غير الذميم
ليس لا لأنهم حسدوا الحى
ى فرقوا على العظام الرميم

ويستظهر على ذلك بقول ابن رشيق — وان لم يصرح باسمه — « ان المتقدمين بنوا فأوثقوا ، وان المتأخرين زينوا ونمقوا » [ص ٦ وانظر العمدة ج ١ ص ٩٠ والنقد الأدبى فى المغرب العربى ج ١ ص ١٦٤] كما يستظهر عليه بما جاء فى الرسائل التى وقعت له من مثل قولهم : — « ان لكل زمان ما يليق به من البيان » و « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

ونراه مؤمنا بأن البلاغة لا تزال تطلع فى كل عصر بالمشارق والمغارب ما يزين سماءها من شمس وبدر وكواكب .

والمنصف عنده هو من أطال عنان الاختيار دون اقتصار ، ولم يخص بالفضيلة عصرا دون عصر ، ولا مصرا دون مصر .

ولا يقتصر على هذا التقرير النظرى بل يتبعه بتقرير آخر عملى استخلصه من تجواله الدائب ، واقرأ قوله :

« وانى لما تغلغلت فى الرحلة ما بين مشرق ومغرب ، وملأت سمعى من

كل معجب بنفسه ومعجب ، ولقيت من الخائضين في النظم والنثر ما اشار اليه القائل بقوله :

النـــاس كالأرض ومنهــا هــم
مــن خشـــن فيهـا ومــن ليِّن
مـرو تشـكى الرجـل منـه الأذى
ولقـــد يجمـــل في الأعـــين

ولقد أثمر هذا التجوال الطيب كتابيه :

[المشرق في حلى أهل المشرق] و [المغرب في حلى أهل المغرب] ثم شرع في استخلاص كتاب منهما تحت اسم [جامع المرقصات والمطربات] ٠

ويظهر أنه اعلن ذلك ، فاستعجله الناس عن اتمامه ، ولما الحوا عليه في ذلك اخرج لهم ما كان قد لمه منهما وسماه [عنوان المرقصات والمطربات] وجعله بمثابة مقدمة للجامع ومدخل اليه ٠

وقد ضمنه من النظم بدائع ابيات لا يشق على القلب والطرف ذكرها ولحظها مما يحاكي شعشعة الشمس على صفحات الأنهار ورقرقة الظل في لحظات الأزهار ، ليرف على مائيته ريحان القلوب ويعطيه السمع لحظ المحب الى المحبوب ٠

مـن كـل معنى ولفــظ ٠ كخمــرة في زجاجتــه
ينمــى النسـيم اليـه ٠ يبغـى لـديه علاجــه

ويحسن التنبيه الى أنه رتبه على الأعصار ، وان ما اختاره وأثبته من الشعر فيه لا يتجاوز ألف بيت ٠

***

والمرقصات والمطربات هي القصائد أو المقطعات التي تأتي في الدرجتين الأولى والثانية من درجات الشعر الخمس والثلاثة الأخرى هي ٠

المقبول والمسموع والمتروك ـ على التوالي ٠

فليست المرقصات هي الراقصات ، وليست المطربات هي المغنيات كما فهم ذلك من قدم للكتـــاب بقوله الذى يدل على عدم فهمه « والكتاب مع صغر حجمه وقلة عدد صفحاته ، يعد من الكتب الفنية لما جمعه بين صفحاته من أخبار الراقصات والمطربات فى العصور الغابرة » ٠

***

والمرقص عند ابن سعيد : ما كان مخترعا أو مولدا يكاد يلحق بطبقة **الاختراع كقول امرىء القيس** :

ســـموت اليهـــا بعـــدما نام أهلهـــا
ســـــمو حبـــاب المـــــاء حالا على حال

وكقول وضاح اليمن :

قالت : لقـــد أعييتنا حجـــة فأت اذا ما هجـــع الســـامر
وأسقط علينا كسقوط الندى ليـــلة لا نـــاه ولا آمـــر

وكقول ابن حمديس الصقلى :

باكـــر الى اللـــذات واركب لهـــا
ســـوابق اللهـــو ذوات المـــراح
من قبـــل أن ترشف شـــمس الضحى
ريق الغـــوادى من ثغـــور الاقاح

والمطرب : ما نقص فيه الغوص عن درجة الاختراع الا ان فيه مسحة من الابتداع كقول زهير فى المتقدمين :

تراه اذا ما جئتـــه متهـــللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وقول حبيب فى المتأخرين :

ولو لم يـــكن فى كفـــه غير نفســـه
لجـــاد بهـــا فليتـــق الله ســـائله

والمقبول : ما كان عليه طلاوة مما لا يكون فيه غوص على تشبيـــه وتمثيل وغيرهما من الألوان البـــلاغية الأخرى ومن المقبول قول طرفة فى المتقدمين :

ســـتبدى لك الأيام ما كنت جاهـــلا
ويأتيـــك بالأخبـــار من لـــم تزود

وقول ابن شرف فى المتأخرين :

لا تســـأل النـــاس والأيام عن خبرى
همـــا يبثانك الأخبـــار تطفيـــلا

والمسموع : ما عليه أكثر الشعراء مما به القافية والوزن دون أن يمجه الطبع ويستثقله السمع كقول امرىء القيس :

وقـــوفا بهـــا صـــحبى علىّ مطيهـــم
يقولون : لا تهلك أسىً وتجمـــل

والمتروك : ما كان كلا على السمع والطبع كقول المتنبى :

فقلقلت بالهم الذى قلقـــل الحشـــا
قلاقـــل هـــم كلهـــن قلاقـــل

***

ووفاء من المؤلف لعنوان كتابه ، قصره على المرقصات والمطربات دون بقية الطبقات ، لكنه احتـــاط لنفسه بقوله : « وقد يلى من طبقتى المسموع والمقبول ما يكون توطئة للمرقص والمطرب ، فأجعله من جملة الألف بشفاعة ما يتعلق به » ص ٩ .

***

واذا كان ابن سعيد قد عول اكثر ما عول فى التمثيل للمرقص والمطرب بما يراد كذلك من الشعر . لكونه أعلق بالأفكار واجول فى الأقطار ، وهو معين على نفسه فى تذكاره ودرسه ، فانه لم يخل كتابه من النثر بالكلية . وانما أورد منه ما يكون كالعلم فى الحلة الموشية .

ولما كان النثر فى الأدب العربى يطلق على ما هو مقيد بالسجع ، وعلى غير ما هو مقيد به ، فانه لم يورد فى كتابه ـ على حد قوله ـ الا ما كان مقيدا بالسجع المسهل للحفظ مما هو داخل فى طبقتى المرقص والمطرب ، جريا على ما اختطه لنفســـه فى الشعر . وقد رتب ما ذكره من النثر على الاعصار .

مثلما فعل فى الشعر ، فهو يورد نصوصا لعبد الحميد بن يحيى الكاتب وابراهيم بن العباس الصولى والخليفة العباسى عبد الله بن المعتز وأبى الفضل ابن العميد وابنه أبى الفتح وابى اسحق الصابى والصاحب بن عباد وأبى نصر العتبى وبديع الزمان الهمذانى والأمير أبى الفضل الميكالى وأبى محمد القاسم بن على الحريرى والقاضى الفاضل البيسانى وضياء الدين أبى الفتح ابن الأثير الجزرى وابن كيزان المصرى وابن الصيرفى المصرى وذى الوزارتين أبى عبد الله بن أبى الخصال امام كتاب الأندلس طرفى المائتين الخامســـة والسادسة وعيسى بن خير العكيلى والفتح بن عبد الله صاحب قلائد العقيان وهو من ائمة كتاب الأندلس فى المائة السادسة وأبى جعفر بن عطية الطرشوشى امام الكتاب فى صدر دولة عبد المؤمن الموحدى وعنوان طبقته وأبى عبد الله ابن عياش كاتب الناصر وغيره من بنى عبد المؤمن والنجـــم القوصى وزير صاحب حماه وابن أبى منصور الدمياطى وزير الملك الأشرف وهو من بلغاء المائة السابعة بالديار المصرية وأبى العباس الغثائى كاتب صاحب افريقية وهو علم فى الكتاب تعجز بلاغته وأبى الوليد بن الحنان وعلى بن سعيـد صاحب الكتاب الذى نعرضه .

***

ولنلاحظ أنه ادخل المصريين والأندلسيين فى مفهوم المغرب ولا عجب؛ فهذا هو رأيه الذى رأيناه له فى كتابه (المغرب فى حلى المغرب) ؛ ففى دار الكتب المصرية . ١٠٥٠ ورقة من هذا الكتاب منها ٥٣٦ خاصة بمصر ، وهذا يعنى أن المغرب من وجهة نظره يمتد من الأندلس حتى حدود مصر الشرقية وهى نفس ما تذهب اليه فى كتابه [الجغرافية] ص١٨ طبعة بيروت سنة ١٩٧٠ تحقيق اسماعيل العربى ، وما نجـــده له هنا ؛ فهو فى صدر ص ٧٥ من [عنوان المرقصات والمطربات] طبعة دار احمدوحيو ببيروت سنة ١٩٧٣ يعطى هذا العنوان :

شعراء المغرب من أول الديار المصرية الى البحر المحيط :

«يستهل كلامه تحت هذا العنوان بقوله :

«الجاهلية وما بعدها الى المائة الرابعة عاطلة مما هو شرط هذا الكتاب» .قد تضمن هذا القول — على وجازته — حقيقة أدبية بالغة الأهمية هى أنه **لا يوجد أدب مرقص ولا أدب مطرب بالمغرب العربى الكبير فى ثلاثة القرون** الهجرية الأولى ·

***

ولعلنا — نحن المشارقة — فى غير حاجة ماسة الى ما مضى من الكتاب الى هذا الحد ؛ فهذه **بضاعتنا ردت الينا** ·

أما من هنا، أى من ص ٧٥ ، فاننا نجد المؤلف يستفتح شعراء المائة الرابعة بابن عبد ربه صاحب العقد وامام أهل أدبها بالأندلس ·

ويختـــار له من المرقص قوله الذى حكم المتنبى بسماعه أنه شاعر الأندلس ·

يا لـــؤلـــؤا يســـبى العقـــول أنيقـــا
ورشـــا بتعـــذيب القلوب خليقـــا !
ما ان رأيت ولا ســـــمعت بمثـــله
درا بعـــود من الحيـــاء عقيقـــا !
واذا نظـــرت الى محاســـن وجهـــه
أبصرت وجهـــك فى ســناه غريقـــا
يا من تقطـــع خصـــره من رقـــة
ما بـــال قلبـــك لا يكون رقيقـــا

وبعد ابن عبد ربه : ابن هـــذيل الاعمى ويوسف بن **هارون الرمادى** والشريف المروانى الطليق · ومما اختاره له **مرقصا به قوله :**

وعلى الأصـــائل رقة من بُعده ... فكأنهـا تلقى الـذى ألقــاه
وغدا النسيم مبلغـا ما بيننـا ... فلـذاك رق هوى وطاب شذاه
الروض مبسمه ونكهتـه الصبا ... والورد ـ أخضله الندى ـ خداه
فلـذاك أولـع بالرياض لأنهـا ... أبـدا تذكـرنى بمـن أهـواه

ثم جعفر بن عثمان الحاجب وابن فروج الحيانى وتميم بن المعز والمقداد المصرى وأبو الحسن العقيلى وابن وكيع التنيسى هؤلاء كانوا شعراء المائة الرابعة الذين اختار ابن سعيد من شعرهم شعرا يتردد بين المرقص والمطرب.

***

أما :

شعراء المائة الخامسة ص ٧٨ :

... فهم بحسب ترتيبه لهم ـ أبو عمرو بن الدراج القسطلانى وادريس ابن اليمان وأبو عامر بن شهيد وأبو جعفر اللمـائى وأبو حفص بن بروا الاصغر والوزير الامام أبو محمد بن حزم والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية وابنه الراضى والمأمون بن المعتمد وأبو بكر بن عمار وزير ابن عباد وأبو الوليد ابن زيدون وزير ابن عباد وحبيب الأندلسى وزير ابن عباد وأبو حفص كاتب المعتمد بن عباد والوزير أبو عامر عبدوس وابن وهبون المرسى والبجلى وأبو الفضل بن شرف وعبد الله بن القابلة السبتى وابن رشيق وعبد الله بن محمد العطار وعبد الرحمن بن حبيب وأبو عبد الله بن شرف وعلى بن يوسف التونسى وعتيق الوراق وعمران بن القاضى المسيلى وعبد الوهاب المثقالى وابن الغطاس وابن أبى مغذوج وثقة الدولة جعفر بن تأييد الدولة ملك صقلية .

ولنقف من شعر هذا الملك عند قوله من المرقص :

رأتنى وقـد شـبهت بالورد خـدها
فتاهت وقالت : قاس خـدى بالورد
كما قال : ان الأقحـوان كمبسمى
وان قضيب البـان يشـبهه قـدى

وحـــق صـــفا مـــاء النعيـــم بوجنتى
وحسن الجبين الصلت والفاحم الجعدى
لئن عـــاد للتشبيـــه يوما حـــرمته
لذيذ الـــكرى لا بل أذوقـــه فقـــدى
اذا كان هـــذا فى البســـاتين عنـــده
فقولوا له : لم جاء يطلبه عنـــدى ؟ !

وبعد هذا الملك يأتى شعر مرقص للقائد الحسين بن مشكور ومحمـــد ابن الحسن الكاتب وعلى بن الطبرى وابن عتيق الصفار وعبد العزيز بن الحاكم وأبى الحسن بن ابراهيم الودانى والقـــاضى الجليس أمين الدين المصرى وصنهاج وهاشم بن الياس المصرى وابن ملنسه وأبى الطـــاهر بن دواس الكاتمى ويعقوب بن كاس اليهود وزير العزيز والموفق أبى الحجاج بن محمد صاحب ديوان المكاتبات وأبى على الأنصارى والقاضى أبى الفتوح بن قادوس وأحمد بن مفرج وابن عباد الاسكندرانى وابراهيم بن شعيب المصرى وعبدالله ابن الطباخ وظافر الحداد الاسكندرانى وعلى بن حبيب التميمى والجليس ابن الحباب .

***

ومن شعراء المائة السادسة :

أبو اسحق بن خفاجة وابن اللبانه ، ومن مرقصه قوله :

بروحى وأهلى جـــيرة ما استغنتهم
على الدهـــــر الا واثنيت معــــانا
أراشـــــوا جناحى ثم بلوه بالنـــدى
فلم أســـتطع من أرضـــهم طـــيرانا

وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو جعفر الجزار البطرنى وابن وضاح المرسى وابن الزقاق البلنسى وأبو الصلت صاحب الحديقة والحجازى صاحب المسهب ومحمد بن سعيد عم جد المصنف وابن أخيه أبو جعفر بن عبد الملك ابن سعيد الذى كتب الى حفصة الشاعرة اثر ليلة وصال باتا بها فى مرضع يعرف بجود مؤمل وهو متنزه :

رعى الله ليـلا لـم يـرح بمذمـم
عشـيه وأرانـا بجـود مؤمـل

وغـرد قمـرى على الـدوح وانثنى
قضيب من الريحان من فوق جدول

أترى الروض مسـرورا بما بداله
عنـاق وضـم وارتشـاف مقبـل

فجاوبته تقول :

لعمـرك ما سـرت رياض بوصـلنا
ولكنها أبدت لنا الغـل والحسـد

ولا صـفق النهر ارتيـاحا لقـربنا
ولا صدح القمـرى الا لمـا وجـد

فلا تحسـن الظن الذى أنت أهـله
فما هـو فى كل المواطـن بالرشـد

فمـا خلت هذا الأفق أبدى نجـومه
لأمر سـوى كى ما تكون لنا رصـد

وانما اوردت هذا المثال — على طوله — لأنبه الى ان ابن سعيد يترخص فى نثره وشعره بل فى شعر اهله وكل من يلوذ بهم ٠

ففى رأيى انه لا يأتى فى ذلك كله على شرط كتابه وانظر صفحات ٢٠ ، ٨٨ ، ٩٤ وبعد حفصة الشاعرة ، ابن سفرة المرينى **وأبو عبد الله الرصافى** البلنسى وابن مجير وابن بقى وابن حيون الاشبيلى وابن قلاقس الاسكندرانى وابن حمديس الصقلى ٠

❊❊❊

ونصل من كتابه الى مسك ختامه وهم : . .

شعراء المائة السابعة :

الى عهده :

الأسعد بن مماتي وابن سناء الملك والنجيب بن الدماغ وجعفر بن شمس الخلافة والكمال بن النبيه والبرهان بن الفقيه نصر والأمير سيف الدين سابق والصاحب جمال الدين بن مطروح وشرف الدين الديباجي وابن شاور والزكي ابن أبي الاصبع وأبو الحسن الجزار والتاج بن غنوم الاسكندراني وسلطان افريقية أبو زكريا بن عبد الواحد وأبو علي بن العفون وأبو جعفر بن طلحة وزير بن هود صاحب الأندلس وكاتبه ومرج الكحل ومطرف الغرناطي وابراهيم بن محبوب كاتب ابن الرستمي صاحب صقلية وأبو القاسم بن طلحة الصقلي ومرقصه الذي أورده ابن سعيد له هو :

أيتهـا النفس اليـه اذهبي
فحبـه المشـهور من مذهبي
مفضـض الثغـر له نقطـة
مسـكية في خـده المذهب
آيسـني التـوبة من حبـه
طلوعـه شمسـا من المغـرب

ثم ابن جبير الصقلي وأبو جعفر بن عياش وعفيف الدين التلمساني وأبو الحسن الرقشي وابن الصابوني الاشبيلي وأبو الوليد بن الحنـان وأبو عبيد بن أبي الحسين بن سعيد وزير صاحب افريقية وموسى بن سعيد والد المؤلف .

والمرقص الذي أورده ابنه له يؤكد ما ذهبنا اليـه من أنه ضعيف مع نفسه ومع أهله : فهو يحابيهم ويخل بشرط كتابه من أجلهم .

وهذا هو مرقص والد المؤلف :

الا حبـذا روض بكـرنا له ضحى
وفي وجنـات الورد للطـل أدمـع

وقد جعلت بين الغصــــون لسيبه
تمـــزق ثوب الظـل منه وترقــع
ونحــن اذا ما صــلت القضب ركعــا
نظــل لها من هزة السـكر ركـع

وعلى بن سعيد المؤلف ، قال من أبيات فى جورة الصالحية بمصر وذكر احداق النيل بها :

وعانقهـــا من فرط شـــوق لحســـنها
فمــد يمنيـــا نحــوها وشـــمالا

والمرقصان السابقان أولى بهما أن يكونا من المسموع ، فان جاملنا المؤلف جعلناهما من المقبول ولو أنهما الى المسموع أقرب وفيه أدخل ٠

***

بهذا ينتهى الكتاب ، وقد جرى فيه كله على ما وصفنا فى قسم شعراء المغرب ٠

فهو يبـــدأ بالعصر الجاهلى فيذكر فحوله والمرقص او المطـرب من اشعارهم :

امرؤ القيس والنابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وأعشى بكر الذى وقف عنده وقفة نقدية لاذعة فقال :

« أكثر ما وقفت عليــــه من أوصافه الخمرية التى اشتهر بها أعرابية جافية يخرجها نمطها عن المرقص وان كانت حسنة التشبيه » ص ٢٤ ٠

وبعد اعشى بكر اعشى باهلة وقيس بن الحطيم ٠

ويورد من المخضرمين : حسان بن ثابت والنابغة الجعدى والحطيئــة وعمرو بن شاش والشماخ وعبيدة بن الطبيب ومتمم بن نويرة وكعب بن زهير وعمرو بن معدى كرب والعباس بن مرداس وأبا الطمحان القينى والخنساء وجذرب بنت عمرو ذى الكلب والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وأوس بن معزى وأبا ذؤيب الهذلى والوليد بن عقبة ٠

***

وينتقل بعد ذلك الى شعراء الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية ص٣٠ ·

ثم الى المخضرمين من شعراء الدولتين الأموية والعباسية فشعراء صدر الدولة العباسية الكائنين فى آخر المائة الثانية ·
فشعراء المائة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ·

واذا كان لنا أن نختار نموذجين يوضحان هذا الاجمال ويبطئان من هذا الاستعجال ، فاننا نقف عند الأحوص ·

ومن المطرب له قوله :

كم دنيء لها قد صرت اتبعه
ولو صحا القلب عنها صار لى تبعا
لا أستطيع نزوعا عن محبتها
أو يصنع الشوق بى فوق الذى صنعا
أدعو الى هجرها قلبى فيسعدنى
حتى اذا قلت : هذا صادق نزعا
وزاده رغبة فى الحب أن منعت
أشهى الى المرء من دنياه ما منعا

ونقف كذلك عند محب الحلبى ·
ومن شعره المرقص وهو مرقص حقا :

لا تقولى : لا ؛ فمكتوب على
فمك الفتان حسنا نعم
حروف أبدعت من قدرة
ما جرى قط عليها قلم
نونها الحاجب والعين بها
طرفك الساحر والميم فم

واذا كنت قد قررت أن الكتاب قد انتهى بوصوله بشعراء المغرب الى عهده ، فهذا التقرير منى حكم نقدى ·
أما عمليا ، فاننا نجد بعد ص ٩٤ صفحة كاملة معنونة هكذا :

القسم الثانى من المرقصات والمطربات

وهو شىء كثير كثير ينتهى بصفحة ٢٨٧ ·

لكنه من وجهة نظرى لا يمت الى (عنوان المرقصات والمطربات) بأية صلة ·

من موضوعات هذا القسم :
أخبار أبى نواس وجنان خاصة ـ نسب ابن عيينة وأخباره خبر بن سريج مع سكينة بنت الحسين ـ أخبار عبد الله بن العجلان مع الجارية هند، ونحو ذلك مما يدل على أن من ألحقـــه بالمرقصات والمطربات قد أثقل على نفسه وعلينا وعلى الكتاب الأصلى ·
ولهذا دلالتان :

الأولى : أن هذا المضيف لم يفهم موضوع الكتاب وأكاد أقول:لم يقرأه ·
والثانية : أنه أراد أن يكبر حجم الكتاب من باب النفخة الكـذابة حتى يبيعه بثمن أعلى ·

لكنه ـ بهذا الذى ارتكبه فى حق الحقيقة ـ ضال مضل وأنا لا أدمغه بهذا الحكم القاسى اعتباطا ·

انظر : ها هو ذا يقول فى نهاية المطبوع :
« تم طبع هذا الكتاب : **المرقصات والمطربات فى ٣٠ آذار ١٩٧٢ المأخوذ** عن الطبعة الأولى المطبوعة فى القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ ، وهذه الطبعة ـ أى طبعته ـ تمتاز عن الأولى بتبويبها وتنسيقهـا **والاضافات التى زيدت عليها بما يناسب موضوع الكتاب** » ·

واذن فهو قد أضـاف الى الكتاب اضافات تنـاسب ـ فى رأيه ـ موضوعه ·

وهذا من أعجب العجب ·
فهى **أولا** : آفات لا اضافات ·
وهى **ثانيا** : لا تناسب موضوع الكتاب ·
لكنه الجشع التجارى والطمع فى المال ·
ولكنها بيروت وطبعها للتراث طبعا مسلوقا غير ناضج ولو أنه طازج ·

٢ ـ الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان

ليس لهذا الكتاب موضوع محدد ، وليس له كذلك مؤلف تنسبه له وترده اليه ولو ان محققه عبد الحميد حاجيات الأستاذ فى كليـــة الآداب بجـــامعة الجزائر قد أظهره بما يدل على أن مؤلفه هو الشيخ الصـــالح ابو مدين شعيب ٠

وسر اسناد هذا الكتاب الى أبى مدين ان جامعه قد صدره بزجـل وتوشيح ثم بثلاثة ازجال وتوشيح للسيد أبى مدين ٠

وابو مدين هـــذا هو الولى الشهير ابو مدين شعيب بن الحسين الانصارى ٠ أصله من ناحية أشبيلية بالأندلس ، ولما شب عن الطوق رحل الى المغرب ودخل فى طريق الصوفية ، وقد اشتهر أمـره ببجـــاية وكثر تلاميذه بها واقبل عليه الناس فيها التماسا لعلمـــه وبركاته واقتـــداء بطريقـــه ٠

وفى سنة ٥٩٤ هـ استدعاه يعقوب المنصور الموحدى الى عاصمته مراكش فرحل فى اتجاهها ولكنه مرض فى طريقه وتوفى قرب تلمسان فدفن بضاحيتها [العبـــاد] ٠

هذا عن أبى مدين الذى ظهر الكتاب باسمه ٠

اما جامعه الذى جمعه وعنونه فهو الأديب التلمسانى محمد بن محمد امرابط ٠

وقد ذكر انه جمعه بطلب من المستشرق الفرنسى بروصلار الذى كان يشغل منصبا ساميا بتلمسان على عهد الاحتلال الفرنسى للجزائر ٠

واذا كنا لا نعرف شيئا عن محمد بن محمد امرابط هذا ، فاننا نعرف عن بروصلار أنه كان مهتما غاية الاهتمام بدراسة تاريخ تلمسان وآثارها الاسلامية ٠

ومن حسن الحظ أنه كان مهتما كذلك بالادب الشعبى وبالموسـيقى المغربية ذات الطابع الأندلسى ٠

ومن هنا جاء طلبه او صدر أمره بأن يجمع له محمد بن محمد امرابط بعض المختارات المشهورة من ذلك الشعر الذى جـرت عادة الناس فى تلمسان بتلحينه وانشاده فى حفلاتهم الدينية والاجتماعية • **وقد قام محمد** بالمهمة التى وكل اليه القيام بها خير قيام •

فجمع هذا الديوان ونسخه بخطه الواضح الجميـل فى رمضان سنة ١١٧١ هـ الموافق شهر يولية سنة ١٨٥٥ م وسماه :

[الجواهر الحسان فى نظم أولياء تلمسان]
وهو موجود فى المكتبة الوطنية بباريس ضمن المجمـوع رقم ٥٢٥٤ [القسم العربى] •

والكتاب فى جملته من الأدب الشعبى الذى كان متداولا على الألسن أواسط القرن الماضى فى جمهورية الجـزائر بعامة وفى ولاية تلمسـان بخاصة ، ولو أن محققه الفاضل قد وسع دائرته بقوله فى مقدمته : —

« ولا يخفى على القارىء الكريم أن الانتـاج الأدبى المودع فى هـذا المجموع يرجع الى تراث ثقافى مشترك بين سائر الدول العربية ، فكثير من الموشحات والأزجال الواردة فيه معروفة فى المغرب والمشرق العربيين ، مع اختلاف خفيف فى الروايات •

ولهذا رأينا ضرورة نشره ليطلع الجمهور المغربى بصفة خاصة والعربى بصفة عامة على نفائس من أدبنا الشعبى ، ولتصبح هذه النصوص المنتقاة فى متناول هواة الموسيقى الأندلسية المتعطشين الى هذا النوع من ثقافتنا العربية » ص ٨ — ٩ •

***

ومهما يكن من أمر هذا المجموع فانه ينقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية :—

القسم الأول : المدائح النبوية من ص ٢٣ الى ص ١٠٤ •

والقسم الثانى : الموشحات والأزجال الأندلسية من ص ١٠٥ الى ص ٢٨٢ •

والقسم الثالث : الحوازى • والحوازى جمع حـوزى ، والحـوزى فى اصطلاح المغنين والموسيقيين والأدباء المغاربة هو الشعر

المنظوم باللغة الدارجة حسب أوزان خاصة تخالف أوزان الموشحات والأزجال ، وبعبارة أخرى هو الشعر الملحون ٠

وقد شغل هذا القسم الصفحات من ص ٢٨٣ الى ص ٣٩٧ ، وبعد ذلك صفحتان مصورتان ثم المراجع والفهارس الى ص ٤٢٧ وهى آخر صفحة فى الكتاب ٠

***

والآن ٠ مع كل قسم من هذه الاقسام فى دراسة موجزة تعريفاً بها وتمثيلا وتعليقا عليها ٠

***

القسم الاول

وموضوعه :

المديح النبوى والتهويم الصوفى

وهو يبدأ بجملة من كلام شيخ العارفين وقدوة الصالحين سيدى ابى مدين الغوث . سبق أن قلنا : انها موشحتان وأربعة أزجال ، ولو أن ثمة شك فى نسبة بعض هذه الأزجال اليه ، فهى توجد فى ديوانه كما توجد فى ديوان الشاعر الصوفى أبى الحسن على النميرى الششترى المتوفى سنة ٦٦٨ هـ [أنظر ترجمته فى عنوان الدراية ص ٢١٠]

ثم ثلاث قصائد وزجل واحد للسيد أحمد الجلبى

وقصيدة وزجلان للأديب الداودى القروى .

وأخيرا اربعة أزجال طوال من كلام سيدى أبى جمعه وهو من أولياء تلمسان المشهورين بها ، وقبره فيها عند باب كشوطة المسمى الآن باسمه .

***

والموشحان المنسوبان الى أبى مدين يمتازان بأن لغتهما صحيحة ان لم تكن فصيحة .

أما الزجل المسلم له به . والأزجال الثلاثة الموجودة على الأعراف بينه وبين الششترى فتتردد لغتها بين الفصحى والعامية .

من موشحته الأولى هذا البيت مع المطلع : —

أنت بما قد سقيت شارب ... من راحق كان أو كدر
سهمك فى الغير فيك صائب ... مالك عن نصله مفر
ثمار ما قد غرست تجنى ... وهذه عادة الزمان
خذ الحديث الصحيح منى ... كما يدين الفتى يدان
من بات منه الورى فى أمن ... بات من الدهر فى أمان
الدهر بحر له عجائب ... وهو خطيب لمن نظر
فاطرح الغى عند جانب ... وخذ على نفسك الحذر

***

وواضح أن موضوع هذا التوشيح هو الحكمة ، وهـو نظم للآية القرآنية الكريمة « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ٠

مع الأخذ فى الاعتبار أن رد الفعل الذى رصده صاحب التوشيح معجل لصاحبه فى الدنيا ، أما الآية الكريمة فعامة تشمل الدنيا والآخرة ٠

وهذا التوشيح ثلاثة أبيات ، والغالب فى التوشيح أن يكون خمسة وله مطلع اى انه غير أقرع

وهو من مخلع البسيط ووزنه
مستفعلن فاعلن فعولن مرتين

***

والتوشيح الثانى لأبى مدين بعنوان :

[ركبت بحرا من الدموع]

وهذا هو مطلعه وبيته الأول :

ركبت بحرا من الدموع ۔۔۔ سفنته جسمى النحيل
فمزقت ريحه قلوعى ۔۔۔ قد عصفت ساعة الرحيل
يا جيرة خلفت عيونى ۔۔۔ تجرى على الخد كالعيون
خيبتم فى الهوى ظنونى ۔۔۔ ما هكذا كانت الظنون
منوا ولا تطلبوا منونى ۔۔۔ فان هجرانكم منون
وجملوا الدار بالرجوع ۔۔۔ وبردوا لوعة العليل
وسامحوا الطرف بالهجوع ۔۔۔ وقصروا ليلى الطويل

ومعنى البيت واضح ولو انه من الأدب الرمزى ، فهو يرمز بتمزيق الريح لقلوعه الى عصف أهوائه به فى أول عهده بالتصوف ، لكأنه ينبه المريدين الى مشقة المرحلة الأولى من مراحل الطريق وهى التوبة وجهاد النفس والتغلب على ما ينتابها من خواطر ونزعات دنيوية ٠

***

ونلاحظ أن قافيتي الشطرين الأول والثاني في الغصن من المشترك

ف [عيوني] قافية الشطر الأول : جمع عين وهي الباصرة و[كالعيون]
الشطر الثاني : جمع عين وهي عين الماء يريد أن يقول : ان دموع
تحاكي في غزارتها الينابيع ·

وهذا الموشح اربعة ابيات وله مطلع وخارجة ، وهو — كسابقه — من
البسيط ·

***

ومن زجله المسلم له به وهو بعنوان :

[دارت علينا كيوس]

دارت علينا كئوس	من خمره العالى
لا تطيب النفوس	الا بأمثالى
دارت علينا كيوس	فى حضرة المحبوب
اهل المعانى جلوس	ومن دخل يشرب
لا تطيب النفوس	الا لمن يقترب
حر المعانى تغوص	هذاك هو حالى
لا تطيب النفوس	الا بأمثالى

ص ٢٥ — ٢٦

فى الأصل [البالى] والمعنى به لا يستقيم ، فالبالى هو خمر الدنيا ،
خمر المراد هنا وفى كل ما سيأتى بهذا القسم ، فالمقصود به انما هو
ى فى العبادة من ذكر وزهد وصيام وتهجد ·

والمحبوب هو الرسول صلى الله عليه وسلم ·

واصراره على ان النفوس لا تطيب الا به وبأمثاله ، من باب احساس
بنفسه واغراء الناس بطريقه ، فهو حض لهم على اتباعه وسلوك سبيله،

ولا يصح أن نحمله محمل العجب بنفسه ، والادلال على الله وعلى النـاس بصلاحه ·

وفى الزجل نوع من التجريد نتمثله فى قوله :

[أهل المعانى] وفى [بحر المعانى] ·

كما أن فيه اغراء بالوسيلة وهى الدخول فى الطريق ، وتبشيرا بالغاية وهى القرب من الله الى درجة الالتصاق به والاعتناق له والفناء فيه ، وعلى حد قوله: « كل حقيقة لا تمحو أثر العبد ورسمه فليست بحقيقة » [عنوان الدراية ص ٦٤] ·

وهذا المثال ـ وهو من الزجل المتردد بينه وبين الششترى لأنه موجود فى ديوانيهما ـ يؤكد حرصه على تحقيق هذه الغاية بأية وسيلة . بل يثبت أنها قد تحققت له ·

قال :

أنـا يهـواه وهـو يعشقنى   سـلمرا حـالى
سـقانى لمـا بدأ أنتشقنى   نشـره الغـالى
هـو لى روح أقام البـدنا   هـو فى سـرّى
لا تعـوموا تغـرقـوا فى بحرنا   ذاك هـو بحـرى

ص ٣٣ ـ ٣٤

وترتفع حرارته الصوفية فيدخل أكثر وأكثر فى الذات الالهية الى حد الفناء فيها والغاء الثنائية بينه وبينها ، وهى هى نظرية الحلول التى عبر عنها أحد الصوفية ـ ولعله الحلاج ـ بقوله : « ما فى الجبة الا الله » ·

أصغ الى قوله :

قلت انى أبـدا أعشـقـه   وهـو لى يعشـق
وأنـا مغـربـه مشـرقه   وهـو بى أشـرق
فى ثنـاياه ومن يلحقـه   انمـا هـو الحـق

لو تروا حـــين تدلّى قـــدنا ســـــــــاعة الذكــــــر
ومحت وحـــــدتنا اثنتنـــا واختـــــفى ســــــــوى
ص ٣٤

ونضع خطا تحت البيت الأخير ، فهو ذروة التصريح بالوحدة القائمة بين العبد وربه ٠

***

وننتقل الى كلام السيد/ أحمد الجلبى رحمه الله وهو ثلاث قصـــائد وزجل واحد ٠

وقد جاءت قصائده باللغة الفصحى ٠
أما زجله فيتنزل عن ذلك قليلا ، ربما كثيرا ٠

قال من قصيدة :

[صل يا ربى على من نوره]

صَـــــــــلِّ ياربِّى على مَنْ نوره
يتجلى مستطيـــــــلا فى الحَلَكْ
يا حبيبـــــا فى ضلوعى قـــد سَلَكْ
مَسلكَ الروح وقلبى قد مَلَكْ
كلمـــا ألفيتُ فى قلبِ الحشـــــا
مـــن مأوى ومشـــاوى فَهْنىَ لك

والبيتان ١ ، ٢ معناهما واضح ، أما البيت الثالث فمعناه :

روحى لا تحب سواك ولا تعلق لها الا بك ٠

***

ومن زجله الذى عنوانه [مرحبا شهر التهام] ٠

يقصد التهامى وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، نسبة الى تهامة وهى قريش أو مكة ، وشهر التهام هو شهر ربيع الأول .

قال :

مرحبا شهرَ التهامْ   مولدُ خيرِ الأنامْ
صاحب الحُسْنِ العجيبْ   الشفيع يوم الزحامْ
الرسول طهَ الحبيب
حين أتى زين الملاحْ   قد أتانا بالصلاحْ
وتمَّ العيش الخصيب   هو باب للنجاحِ
بغيتى طه الحبيب

ص ٥٩

ولا تعليق لنا سوى قولنا : انه زجل ضعيف فنيا .

***

وبعد الجلبى نلتقى بالولى الأديب سيدى الداودى الفروى وقد شارك فى هذا المجموع بقصيدة وزجلين .

أما القصيدة فقد صدرها بقوله :

صل يارب على من فضله
يتجلى للورى يوم التلاقى
ياحبيبا طال عنى بالفراق
ما الجفا يصلح بى بعد التلاقْ
ان دمع العين بالحب جرى
فوق خدى واتقى طيب المذاق

وهى قصيدة تأتى فى الدرجة الدنيا من السلم البلاغى ·
ولا يفضل زجله شعره ، بل انه يتدنى عنه الى ما تحت الصفر ·

قال :

يا قومْ اوتَحِشْ قلبى بمحبــــوبى
سُلطانْ المعاشــقْ ســيِّدِ الأمّــا
أمْلكنِى الهــوى وكَثَرْت انحُوبى
ودمعَ الجفونْ تَهْطَل كهطل النما
ابمتَا تنظروا ونَشْفِى مرغــوبى
يَهْنَا خاطِرى وأزولْ ذا الغَمّــا

ونشـــفى الغـــرامْ · فى خـــير الأنـــامْ
ونبلــغْ مقـــــامْ · الســـادات الـكرامْ

ص ٦٧ ـ ٦٨

ومع أن هذا الزجل غير موزون ، وكان منتظرا ـ والحالة هذه ـ ان يكون واضحا لعــدم تقيده بوزن معين ، الا أنه كله او بعضه فى حاجة الى توضيح ·

فعبارة [ارتحش قلبى بمحبوبى] تعنى ان محبوبى قد وحشنى ، وان قلبى قد اشتاقه ·

و [سيد الأما] اى سيد الأمم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ·

اما [املكنى الهوى] فمعناها : ملكنى الهوى وصرت أسيره ·
و [كثرت انحوبى] معناها : كثر نحيبى وتعددت مراثه ·
و [المـا] قصر للماء الممدود
و [ايمتا] معناها : متى
و [السادات الكرام] هم الزهاد المتصوفون ·

***

ونصل الى أبى جمعه المدفون بتلمسان ، وقد قلنا ان قبره بها أحد مزاراتها وأن اسمه علم على حى من أحيائها وليس له فى مجموعنا سوى زجل واحد أوله :

يا ليلةً جاءتْ بانشراحْ   صباحُها أفضل صباح
يا ليلةً جاءتْ بالسرورْ   صباحُها يُسْلِي الصدور

ومنه :

لما بدا ضوءُ النهار   والصُّبحُ أشرقْ واستنارْ
هبَّ النسيمْ فاحْ الزهرْ   والياسمينْ اعبَقْ وفاحْ
والوردُ والسَّيْسَبانْ فتَّحْ

ص ٧٨ — ٧٩

وهو من بحر الرجز ووزنه
مستفعلن مستفعلن مرقين

أما أحمد التريكى وهو آخر أدباء هذا القسم ، فيظهر أنه كان من الظرفاء أكثر منه من الأولياء ·

ولد بتلمسان أواسط القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى أوائل القرن الثانى عشر · نبغ فى نظم الحوزى ، ولما كثر غزله — ولعله كان غير عف — ضاق الناس به ، وطالبوا السلطات باخراجه من المدينة ، فأرغمته على الهجرة الى [وجدة] حيث عانى الام الغربة والشوق الى الأحباب ·

وقد استفاد الأدب من ذلك ؛ فقد نظم أحمد فى غربته أروع شعره ·

ونجد له فى هذا القسم ثلاثة أزجال ، هذا مطلع آخرها :

نِلْتَ الغرامْ   بالله حادى القطارْ
قِفْ لى بتلك الديارْ   واقْرا السَّلامْ
سلِّمْ على عَرَبٍ تَجْد   واذكرْ صبَابَتى ووجْدى
كيف يُلامْ   مَن بادرته الدموعْ
شوقا لتلك الربوعْ   مع المقامْ

ص ١٠٠

وواضح انه فى هذا الزجل له يتحرق شوقا الى مهبط الوحى . ويتمنى لو ذهب اليه وعاش فيه ٠

***

بهذا ينتهى القسم الأول من الكتاب ، وهو ـ كما رأينــا ـ فى مدح الرسول وتمجيده وفى الترحيب به وبشهر ربيع الذى أطلعه ، وقد رأينـا قطبه أبا مدين وهو يدخل فى ضمير الله ، أو على الأقل يقف وراءه بحيث لا نراه ٠

* * *

القسم الثـانى

الموشحات والازجال الاندلسية

وهو يشتمل على ست وخمسين قطعة ، منها خمس وأربعون مجهولة القائل ، واحدى عشرة منسوبة الى اصحابها وهم أقل منها عددا ٠

وهذا بيان بهم وبأعمالهم حسب مجيئهم في المجموع

ابن سهل الأندلسي وله توشيحان ص ١٠٧ ، ص ١١٣

الاعمى التطيلي وله توشيح واحد ص ١٤٩ وخمسة أزجال من ص١٥٣ الى ص ١٦٤ ٠

لسان الدين بن الخطيب وله توشيح واحد ص ١٦٥ ـ ١٦٩

الموصلي وله توشيح واحد ص ٢٢٥ ٠

محمد بن أخضر وله حوزي واحد ص ٢٧٢

وحق هذا الحوزي ان يكون في القسم الثالث

***

ومن الطبيعي ألا يكون لهذا القسم موضوع معين أو اطار محدد

فموشحاته تعالج الموضوعات التي تعالجها الموشحات غالبا وهي الغزل القائم على ذكر محاسن المحبوب ووصف ما يلاقيه المحب من شوق ولوعة ، ثم وصف الطبيعة غاية أو وسيلة يجعلها برواز لمفاتن المعشوق ٠

وأزجاله متعددة الأغراض مختلفة المقاصد

وما لاحظناه في القسم السابق نلاحظه هنا ، وهو أن لغة الموشحات فصحى أو على الأقل سليمة ٠

أما الأزجال فعلى العكس من ذلك ، وغالبا ما تأتي ملحونة وفي منزلة وسطى بين الموشح والحوزي بل قد تكون لغتها قريبة من لغة الحوزي ، ولعله ـ لهذا اشتبه الأمر على محمد امرابط جامع الكتاب ، فوضع حوزي ابن أخضر في هذا القسم (ص ٢٧٢)

***

ولا طاقة لنا هنا على عرض هذه الأزجال وتحليلها واستخلاص خصائصها الفنية ، فهى كثيرة كثرة مفرطة ، وتمثل — فى هذا القسم — اغلبية ساحقة ويتأكد ذلك أكثر حين نذكر ان عددها ثمانية وثلاثون زجلا من مجموع الأعمال الأدبية فيه وهى — كما ذكرنا — ستة وخمسون ٠

ولن يمنعنا ذلك من التجوال فيها والتمثيل لها وذكر بعض أغراضها ٠

ولنبدأ بأولها الذى يفتتحه صاحبه المجهول مصنفا بترتيب أبياته على احرف الهجاء هكذا :

ألِفْ : ألِفْتُ البُكا بعد الحبيبْ

التَا : ثيابْ جَسمنى نَحيلْ اصفرار

التَا : تَرى دمعى دمًا يَجرى سكيبْ

الثَا : ثيابْ جَسْمى نَحيلْ اصْفرارْ

الجيم:جمارى فى الحَشَا شَعلَت وقود

الحا : حَرمْ مَن مُقلَتى جيشْ الكرى

الخَا : خَشيتْ واشْتَفا وفيًّا المسود

الدال : دابْ جَسمى وفى قلبى جَمرا

الذال : ذقتْ مَن الجَفا كأسَ الصدود

الرا : رويتْ منَ الهَوى ذُلْ الورى

ص ١١٧ — ١١٨

وواضح ان موضوعه انما هو وصف حال المحب وما يعانيه فى سبيل محبوبه من أسى ولوعة ، أما معانيه فمتكررة ٠

***

وهذا زجل ماجن عنوانه :

[املاكيوس الخلاعا]

يقول صاحبه فيه :

امـلاكيـوسْ الخـلاعَا	نَستغنمُوا أيامَ السّرورْ
الدهرْ سَاعًا بساعًا	اغنَم زمانَكْ لا يَدور
اغنَم زمانَك بواجب	افرحْ واسكَر مع الحبيبْ

فى روْض باهى الذوائبْ   والطيرْ مِنْ فوقَ القضيبْ
بالسكيتَرا والربَائبْ   والزنجَ والنَّقنر العجيبْ
أمُّ الحَسَنْ فى ارتفاعَا   تَفْخَرَ على جَمْعَ الطّيورْ
تغنيك عن جَمْعَ الصّنَاعَا   وتَلْهَمَكْ للكاسْ يَدورْ

ص ١٣٦ — ١٣٧

والزجال هنا خيامي النزعة فهو يدعو الى الخلاعة وشرب الخمر حتى السكر مع الحبيب على أصوات الموسيقى وغناء الطيور وبخاصة أم الحسن وهى طائر مشهور فى المغرب بالترديد العذب والتطريب الحنون ٠

***

ويستوقفنا هذا الزجل بلغته التى تكاد تسلم من الخطأ :

بأبى ظبى ربربى   أخجَلَ الشّمسَ والقَمَرْ
من بنى التّرك أشنبى   قد حوى الحسْنَ وافتَخَرْ
كم عشيق به سَبَى   لازم النَّحْبَ والسّهَرْ
مائسْ قده القَويمْ   كاملْ الزين مُبْتَهجْ
ناحلْ خَصْره الهضيمْ   واللواحظْ بهمْ دَعَجْ

ص ١٥٤ — ١٥٥

الزجال المجهول هنا يصف المفاتن الجسدية لحبيبه ، وهو اذ يفتديه بأبيه يلفتنا الى ما شاع واشتهر من جمال نساء الترك ، ومعلوم أن تلمسان سقطت فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ٩٥٣ هـ ، وقد ظلت تحت حكمهم الى أن استولى عليها الفرنسيون سنة ١٩٢٠ م ٠

واذن فاعجاب الزجال بجمال المرأة التركية اعجاب فى محله وعن بينة ٠

***

ولا نعدم بين أزجال هذا القسم غزلا عفا يشبه أن يكون غزلا صوفيا مثل :

يا عاشقْ هذا النّوى   يومْ بانوا أحبّتى
ذابْ ذا القلبْ وانكوى   واشتعلتْ نيرانْ زفرتى

يا أخي صابني الهوى	عيدلي بالله اش حيلتي
اني بربي منتصر	ومن قصده ما يخيب
طال بي هذا الأمر	واوتحش قلبي للحبيب
يا كريم عقلي صار يغيب	واوتحش قلبي للحمى

ص ١٦٣ — ١٦٤

***

ومثل :

بلغ الى أهل الديار	مني السلام
وقل لهم : الانتظار	زادني هيام
مالي على الهجر اصطبار	أو لا متلام
جرى علي في المغيب	حكم القدر
ما كنت نطلب يا رقيب	اليوم حضر

ص ١٧٤

وهو زجل سليم من بحر الرجز ، ووزنه مستفعلن ثلاث مرات .

***

وهذا زجل في التمني والعتاب :

الله لا يقطع لي نصيب	حتى نقبل وجنتك
لاش الحبيب ينسى الحبيب	ما اصعب علي فرقتك
هذاك جزا قلبي الكئيب	اللي حمل في عشقتك
أنظر باش بدلتني	خدت الشمال عوض اليمين
اعلاش غزالي خنتني	الله يخون الخائنين

ص ١٧٩ — ١٨٠

***

وزجل يصف العشاق بأنهم رقاق النفوس ص ١٨١ — ١٨٣

وزجل في وصف مجلس انس ص ١٨٤ — ١٨٦

***

وهذا زجل يتغزل صاحبه فيه بحبيبه غزلا ماديا بحتا ، فهو يصف قده ونهده ويستجديه قبله ثم يعاتبه على صده بقوله :

دعنى نتعذب فى وصالك ... واتجدد فيك ولاعا
حين نرى قدك ونهدك ... نتسحر من نظر سعا
هات لى قبلا فى خدك ... يا شبيه ضى الشعاعا
ذا النفار واش هكذا يبقى ... متزقى فى سوء حالى
العاشق يتعب ويشقى ... هذا فى عشقك جرى لى

ص ١٨٨

***

وزجل بعنوان [لاش تنحجب لا تنحجب] ص ١٩٢
وزجلان فى وصف الربيع ص ١٩٨ وص ٢٦٠ .

***

وربما كان الزجل المقبل من الغزل بالمذكر وهو :

يا بو العيون النيام ... عذبت قلبى الحزين
تخضع وترعى الذمام ... عما كتب فى الجبين
طايع لأمرك يا غلام ... يا محنة العاشقين
اعطف وكف الجماح ... تخمد لهيب حرقتى
يا بو العيون الوقاح ... افنيت ما بغيتى

ص ٢٣٨

***

ولا يسعنا فى ختام هذا القسم الا أن ننوه بغزارة مادته وصدق عاطفته وتمام ملاءمته للمتذين به والمستمعين له .

ومن خصائصه الفنية البارزة :

انسجام نغمه ، وهدوء موسيقاه ، وتنوع الأوتار التى يضرب عليهـا فى النفس الانسانية .

***

القسم الثالث

الحـــوزى

وقد سبق التعريف به ، ومن الملفت للنظر في هذا القسم ان نصوصه كلها موثقة بمعنى أن كل حوزي منسوب الى صاحبه فثلاثة الأحواز الأولى مضافةالىقائلها ابن مسايب وبعدها خمسة أحواز لابن التريكي :

ثم حوزان اثنان لمحمد بن سهله ، وحوزي واحد لابنه أبي مدين ٠

***

ونظرا لأن هذه الدراسة قد طالت بنا وتجاوزت حدها المرسوم لها ، فاننا سنكتفي بجزء من حوزي واحد لكل مؤلف ٠

ويسهل تقبل ذلك اذا علمنا أن الأحواز في ذاتها طويلة بشكل واضح ٠

أولا : ابن مسايب

وهو ابو عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب ، ينتمي الى أسرة أندلسية نزلت مدينة فاس ، ثم استقرت بتلمسان التي ولد بها في أوائل القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي ٠

وقد عرف عنه حبه الأكيد لتلمسان وحزنه الشديد على ما أصابها من نكبات وكوارث ٠

ومع أن أول أحوازه في تمجيدها والوقوف عندها بكاء على أطلالها ، الا اننا سنتجاوزه الى حوزه الثالث ، فهو يدل على اقتـــداره العجيب في الصنعة ٠

واذا كنا قد أعجبنا في القسم الثاني بزجل مشتمـــل على الحروف الهجائية بمعدل شطرة واحدة لكل حرف ، فاننا هنا نجد أن الابجدية العربية قد ظفرت بخمس وثلاثين مقطوعة بمعدل مقطوعة لكل حرف ، وكل مقطوعة [illegible] ثابتة [illegible] الوشام ؟ وهي من ألوان الحوزي مع ملاحظة أنه قسم الحوزي بمقطوعة مزدوجة وانه استقل بحرف الألف ؟ تخصه بأربع مقطوعات ، ربما لأنه الحرف الأول ، ولكل أول اعزاز ٠

قال :

يا الوشام

يا الوشام دخيل اعليك — كن حازر فاهم نوصيك
اخفض والخفض ايواتيك — أو رطب يدك لا تاذيها
يا الوشام أو شم ولفى — شيء أو شام اظرف الكف
أو رتب احروفها جا وصفى — في المراتب واهدايها

يا الوشام

دير اليف : ألف ميتا — من الضرب والجوع اقويا
أو ركب امحال الوتديا — أو جابها الباي أو حابها

يا الوشام

أعمل ألف ألفين ازناد — واعمل اعساكر والقياد
والطبول اترعد ترعاد — والخيول اتشالي ليها

يا الوشام

أعمل اليف ألف مركوب — حربت للميدان احروب
واهلها ما يرضاوا اهروب
كل يوم اقمر تجليها

يا الوشام

اعمل اليف اجنح مهنيين
وام لحسن والمنصور اخرين
امنين ينطقوا ابصوت احنين
ايهبلوا الدنيا واهليها

يَا الوشّامْ

دير البَا : بَهنجَةْ الأسرار

فالمَتَنع وامنازْه وادْيارْ

او حصّن البيبانْأو الأصوارْ

واعمل العَسّا تَحنصيها

يَا الوشّامْ

الوشام : صانع الوشم وهو زرع اللون الأخضر نقطا أو رسما أو اسما فى مواضع معينة من جلد الانسان ٠

اخفض : كن معتدلا فى الأجر ٠ الخفض = الغنى ٠ رطب يدك = خفف يدك فى الصنعة بحيث لا تؤلم من تشمهم وبخاصـــة حبيبتى فلا تؤذى يدها وانت تمارس وشمها ٠

شى أوشام : بعض الأوشام التى تجعل كف وليفى ظريفا ٠

أو رتب حروف اهجا وصفى : يعطيه التسلسل الأبجدى ليكتببمقتضاه ويهتدى بهديه ٠

النجوع = جمع نجع والنجع : المكان فيه الكلأ ينتجعه الرجال الأقوياء أى يقصدونه نشدانا لما فيه من مرعى لأنعامهم ٠

امحال الونديا : أماكن العساكر الونداليين أى ارسمهـــم فى حالة استعراض السلطان لهم ورده على تحيتهم ٠ ازناد : بنادق : مجاز مرسل علاقته الجزئية ٠

الطبول اترعد ترعاد : ترعد ارعادا اى تصدر أصواتا عالية كالرعد ٠
والخيول اتشالى ليها : ترقص والمقصود هنا تقفز على وقعها ٠
مركوب : ما يركب من أفراس وجمال ونحوها ٠
حربت للميدان احروب : حاربت فى المعارك حروبا كثيرة عظيمة ٠
وأهلها ما يرضاوا هروب ٠٠٠ : وفرسانها لا يهربون وكل يوم يبرز من بينهم بطل معلم يحسبه كل الناس كأنه القمر ليلة تمامه ٠ جناح = طائر : مجاز مرسل علاقته الجزئية ٠

مقتنين : طائر مغرد · ام الحسن : البلبل ·

امنين يطلقوا ···· : كلما غردوا بصوت حنون هيجوا الدنيا وأهلها الى درجة الافتتان بها وفقد الاتزان معها كأنهم جنوا ·

الاسرار : الأرواح · فالمتع : المتع · وامنازه : المنازه أى المتنزهات من حدائق ومياه جارية وأودية خضراء · والديار : والديار : جمع دار ·

العسا · العسس · تخطيها = تحرصها ·

واين مسايب هنا ينصح الوشام بأن يكون حذرا وماهرا في صنعته كى تكون متقنة ومريحة ·

وبأن يكون معتدلا فى تقدير اجره · ويعــــد بانه ان فعل ذلك ، فأن عملاءه سيكثرون · ويكون ذلك سببا فى غناه وخفض عيشه وينادبه ليوصيه بأن يشم وليقه على كفه ونسما جميلا دون أن يؤله ثم يطلب منه أن يرصده وهو يسجل بحوزه حروف الهجاء مرتبة ليعرف تسلسلها أولا وليستوحى مقطوعاته فى صوره ثانيا ·

الألف :

ارسم الف مائة عربى ينتمون الى النجوع المشهورة بالبأس والقوة ·
و ركب صورة تمثل الجنود الوندالبين وهم فى أماكن تجمعهم يعظمون السلطان والسلطان يعظمهم أى اعمل صورة لجيش عربى أو أجنبى ·

والألف يمكن أن تكون طرة لصورة مكونة من ألفى بندقية ومن جيش كامل بعساكره وقواده ·

كما يمكن أن تكون طرة لصورة مكونة من ألف فرس حاربت حروبا هائلة وهى تثب من فوق الارض بفعل الطبول التى تصدر اصواتا كالرعد ·

اما فرسانها فشجعان يقدمون ولا يحجمون ، وكل يوم يخرج من بين ازقهم بطل ·

ويدله على أنه يمكنه أن يرسم العديد من الطيور التى تفتن الدنيــــا وأهلها بأصواتها الحلوة ·

تلك كانت مقطوعات الألف.

أما مقطوعة الياء فمعناها : ان بهجة الأرواح وفرحتها تكمن فى المقع التي تكون أطرها المنازه والدور مع الشعور بالامن ، ومن اجل هذا يجب تحصين الابواب والاسوار واقامة العسس للحراسة ٠

***

ثانيا : أحمد القريطي

ولد بتلمسان وعاش فيها وتوفى بها اوائل القرن الثانى عشر الهجرى٠

وقد سبق ان قلنا : انه الى الظرفاء اقرب منه الى الاولياء ، بسبب غزله المكشوف الذي جعل أهل تلمسان يتظاهرون ضده ويطالبون بنفيه وقد استجيب لهم حتى لا يفسد أخلاقهم وأخلاق بناتهم وابنائهم ٠

وهذا الجزء له وعلى وجه التحديد : الجزء الذى سنورده منــه موضوعه : الشكوى مما يلاقيه من حب وعذل ٠

وهو فيه يحلم بالهناء واللعب والانبساط مع الحبيب بعــد أن يلبسه أغلى الثياب ويحميه من أية مشقة ومن أي عذاب ٠

وانه ليأمل أن تتحقق له هذه السعادة فى اطار من الجمال المسموع المتمثل فى موسيقى الطيور الباغمة كالضبا والقطوالأوز والحمام واليمام.

والجمال المرئى المتمثل فى الزهور من ورد ونسرين ونعناع ٠

لكنه يصحو من حلمه الحلو على واقعه المر وهو الحرمان الأليمفيعترف بأنه ابتلى بما لم يبتل أحد به من حرقة ولوعة وأسى ٠ وبأنه هو الذى ألقى بنفسه الى التهلكة ؛ فرجله هى التى مشت به فى طريق حبه ، وعينه هى التى اكتشفت جمال محبوبه ، وبسبب معشوقه الذى لا صبر له على فراقه أهدر درسه ونسى لوحه وقرآنه

***

ولندعه هو يتكلم ، قال بعنوان :

[فيق يا نايم]

فيق يا نايم واستيقظ من المنام
واستغنى لكلامى يا خاى وافهموا
صاد قلبى محننا واعذاب وانتقام
ما قويت اخلى هذا السر نكتموا
يا ابنات البهجا كفوا من الملام
سلموا للمشور فى الزين سلموا
ياابنات البهجا كفوا من الخطاب
يستحق الزين أيكون امواجبوا
حسن كامل واهنا والبسط ولعاب
واللباس الغالى وما ابنا سبوا
ما ايخاف امشقا ما يوسلوا عذاب
فى قبب وامعادى بالما اينسيبوا
والضبا والوز اوفاخت امع الحمام
واليمام اينادى واطيور ينغموا
والزهر والنسرى والورد فى ابسام
والحبق والخيلى بالليم برجموا
سلموا يا الاريام الكل سلموا
يا بنات البهجا صادفت وابتليت
ولا ابتلى حدا بنيرانى او ليعتى
راد لى الله واكتب لى بالرجل مشيت
راو عينيا تهوالى او كيتى
ضاع صبرى ودرت اجميع ماقريت
من اهوى ذالهيفات انسيت لوحتى

واعتذر عن هذا الطول فى التمثيل بأن عدد أبيات الحوزى الذى اوردت هنا صدره اثنان وسبعون بيتا عدا اللازمة التى كان يجعلها [سلموا يا الاريام الكل سلموا]

ـ كما هنا ـ مرة ، و [سلموا يا الاريام فى الزين سلموا] مرة اخرى على التوالى ، الى أن كانت المرة الأخيرة فجعلها

سلمُوا للمَشور فى الزينْ سلمُوا

المشور : هو الموكب الحـافل بالمشاهد الجميلة كموكب الملك وموكب العرس ·

ومعنى اللازمة الخاتمة على هذا : أنه يطلب من الفتيات الجميـلات المنافسات لمحبوبته عنده أن يسلمن لها بالغلبة على قلبه ·

***

ولفهم هذا النص أكثر نعطى معانى مفرداته الصعبة وجمله الغامضة :

استغى لكلامى يا خاى : أصغ لكلامى يا أخى ·

٨٩ محنا : محنة ·

بنات البهجـا : هن بنات الجزائر العاصمة ، وكبنـات كل حاضرة الشأن فيهن أن يكن جميلات أو على الأقل يغلب عليهن الجمال ·

المشور ـ كما قلنا ـ هو الموكب الحافل بالمشاهد المثيرة كموكب السلطان وموكب الفرح : أى لا تجازفن يا بنات الحـاضرة بالدخول فى تنافس مع حبيبتى فطريقها الى قلبى اقصر من طريقكن ·

كفوا عن الخطاب : لا تدخلوا معى فى حوار من أجل موقفى من حبيبى وهو موقف الميل اليه والحب له دونكن ·

يستحق الزين ايكون امواجبوا : فحبيبى المليح جدير بحبى له وانعطافى نحوه ومبررات ذلك حسنه الكامل وما أرجوه معه من هناء ولعب وانبساط؛ ومن اجل هذا اشتريت له اللباس الغالى الثمين ، وأرى مع ذلك أنه اقل منه ولا يناسبه ·

ما يخاف مشقا ما يوصلوا عذاب : وساضمن له الأمان من الزمان فلن يخاف مشقة ولن يصل اليه عذاب ·

فى قبب ومعادى الما ايسيبوا : وسألتقى به فى الخيمات المقامة عند المياه الجارية حيث الطيور الباغمة المغردة ، والجو العطر بالورود والزهور والنسرين والحبق (النعناع) والليمون ·

الاريام . الظباء : استعارة تصريحية ٠

ابتليت : امتحنت ٠ ليعتى : لوعتى وأساى ٠

راو عينيا تهو الى اوكيتى : اشهدكم على أن عينى هى التى رات حسن حبيبى فأوقعتنى فى حبه الذى اكتويت بناره ٠

ودرت : اهدرت ما تعلمته بسبب حبى لذلك الأهيف الجميل ٠

انسيت لوحتى . نسيت قرآنى الذى كنت قد كتبتـــه فى لوحى ثم حفظته ٠

***

ثالثا : محمد بن سهلة

كان من الشعراء المشهورين بتلمسان وقد غلب على شعره الغزل الى أن توفى اوائل القرن الثالث عشر الهجرى ٠

وحوزيه الذى سنورد هنا صدره بعنوان :

خاطرى بالجفا اتعذب

قال :

خاطْرِى بالجفـا اتعـَـذبْ لَبْـــا يَنْسى الغــــزالْ

مسْبوغـَة الانـْجالْ

نارها فالدليــــــل تلْهَبْ حَرقَتْ جَوفِى او جَيـّحتْ

غَصْــنى وادبــالْ

ما صبْت اطْبيبْ للغزال اعْييت انـْتـَـــــالْ

قـَلْبى مَمْحونْ بالغـَـرام ومَرْضـــى طـَـــــالْ

اسـْـــبَابى فـَاطمـَـــا امْنيّـَالتْ الخلْخـَــالْ

آش ادوَاهْ يــا الطّــــالبْ

غـَـــابْ ادوَاهْ يــا الطّـــالبْ

آلطّالبْ عيدْ لِي الرّبِّي
امْريضْ الحُبّ بَاشْ يَبْرا
غَابْ ادوايَا أو غاب طبِّي
افْنيتْ او لاَ وجَدتْ صَبْرا
عَمَدا لي يَا طبيبْ قلبِي
ضَمَرتْ لِي فَالدلبْ ز جَمْرا
كَانْ انتيَا لَبيبْ جربِي
سَبّبْ لِي وافهَمْ اليَشْسارا
شُوفْ لِي فَالكتَابْ واحسَبْ
كان انتيا اطفيت منى ذا المشعال
ذاكْ اللِّي شَرطتْ واجبْ
تَضحي عندك أخديم مملوك ابلا مال
ص ٢٧١ - ١٩٧٣

***

انتهى ما أوردنا اثباته من الجزئ الأول لمحمد بن سهلة ·
وهذا هو شرحه تفصيلا أولا واجمالا ثانيا ·
خاطري :بالى أى قلبى ·

لبا : أبى ولم يرد نسيان حبيبتى التى تشبه الغزال الأكحل فى دعج العينين ونجلهما ·

نارها فالدليل تلهب : نار حبها فى قلبى تشتعل ·
ما صبت : ما أصبت أى ما وجدت مع أننى تعبت من السؤال ·
قلبى ممحون بالغرام : قلبى فى محنة من حبى ·

أسبابى فاطما امنيلت الخلخال : الصلات بينى وبين فاطمة هى صلات الحب والعشق من جانبى · وهى فتاة ممتلئة الساقين فخلاخيلها تضغط عليهما وتترك فيهما آثارا زرقاء كالنيلة ·

يمدحها بالسمنة وهو امتداد لقولهم [خرساء الأساور] ·

اش ادواه الطالب : **ما دواء قلبى** يا طالب ، والطـــالب هو العراف الذى يمارس السحر ، ولا عجب ؛ فالبيئة مغربية ، ونحن فى الشرق نعتقد أن المغاربة هم الأصل فى ذلك ونتتلمذ عليهم فيه وهذا النص يؤكد ذلك ٠

الطالب عيد لى الربى : كرر النظر فى كتبك واستفت نجومك لى من أجل ربى أى وحياة ربى ٠

امريض الحب باش يبرا : هل يشفى المريض بالحب ؟ استفهام بلاغى غرضه التمنى ٠ أو الرجاء ٠

عمدا لى يا طبيب قلبى : أسرع الى وأغثنى يا طبيبى ٠

ضمرت لى فالدليل جمرا : ألقت فاطمة فى قلبى جمرة فاستقرت فى عمق العمق منه وقديما قال كعب بن زهير : [فقلبى اليوم متبول]

كان انتيا لبيب حربى : ان كنت مجربا وماهرا ٠

سبب لى وافهم اليشارا : شوف لى فالكتاب واحسب : افهم ما تقوله لك الكتب ، وما تشير به عليك النجوم فى أمرى ، ثم اكتب لى حجابا يجعلها تحبنى

كان انتيا اطفيت منى ذا المشعال : فاذا أنت جعلتها تحبنى وتندى نار حبى لها بوصالها والقرب منها ٠

ذاك اللى شرطت واجب : ان أنت نجحت فيما أنت بصـــدده من أمرى فانى ساشترط على نفسى شرطا واجبا على تحقيقه ٠

نضحى عندك اخديم مملوك ابلا مال : اصير خادما عندك ومملوكا لك أى أعمل لديك واخدمك دون أجر ٠

***

والمعنى الاجمالى هو :

قلبى تعذب بالجفاء لأنه لم يرد نسيان حبيبته التى تشبه بعيونها النجل

الغزال الأكحل ، ولأنه لم ينس فان نار حبه قد التهبت فى قلبه وأحرقتــه وقيحته حتى ذبل جسمه ٠

ولقد أعياه البحث عن طبيب فلم يجد ، وقلبه لهذا فى محنة بغرامه وسقامه قد طال

ويضيق بكتم سره فيصرح باسم حبيبته ونعرف أنها فاطمة ذات الساقين المتلثنين ، وخلاخيلها لهذا تترك على بشرتها آثارا زرقاء تشبــه النيلة وبالاجتهاد فى البحث اهتدى الى عراف أى منجم ، فأخذ يسأله عن دوائه ما هو ؟

ويغلبه اليأس على أمره فيقول ، غاب دوائى يا عراف فبالله ساعدنى وأجبنى : هل يشفى مريض الحب ؟

ولا يجد تقدما فى حالته ، فيقول متحيرا : افتقدت الطبيب المعــالج والدواء الشافى ٠

***

ويرى انه قد تحل بعد فقد صبره فيطلب من المنجم أن يعيد النظر فى كتــابه وان يكرر سؤال النجوم عن أمره ، ويعقد معه صفقة مضمونها أن يخلصه المنجم من عذابه بجعل فاطمة تحبه وتشفيه من مرضه بوصلهــا له وقربها منه ٠

اذا حقق له المنجم ذلك أضحى خادما عنده ومملوكا له أى عاملا لديه بلا أجر ٠

رابعا : بومدين بن محمد بن شهلا

سلك بومدين مسلك أبيه محمد فى نظم الحوزى والاكثار من الغزل وقد برع فى وصف الحبيب ومجــــالس الأنس والطرب وذكر آلام الفراق والهجران ٠

فقد بصره فى أخريات عمره ، وتوفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ٠

وحوزيه الذى ختم به محمد بن محمد امرابط مجموعه عنوانه :

[سيدى ومن يسال على كحل العين]

وقد صدره بقوله :

سيدى ومن يسال اعلى كحل العين
سيدى ومن يسال اعلى كحل العين
سيدى ومن يسال اعلى رمقات الغزال
الستأذن الحلا الاجدل بثر فترنين
سيدى ومن يسال اعلى طالقة الدلال
اخير الغزال والنفى كاملة الزين
اللى اضحات كودا درقت شق الجبال
بين الحسود ليها ما صبت امنين
لا رصامنها اخلاقى طار والقلب مال
والروح والعقل طار ابلا جنحين
خلاتنى اهبيل تسول بين الرجال
ما كان من اعذرنى يا مسلمين

٣٨٩ ـ ٣٩٠

الكحل : سواد منابت شعر الأجفان خلقة ومنه المثل :
« ليس التكحل فى العينين كالكحل » .

رمقات الغزال : نظراته . والغزال هنا هو المحبوب ، فالصورة بلاغية : استعارة تصريحية :

الأجدل : المفتول القوى الرشيق .
طالقة الدلال : ذات الدلال الآسر الأخاذ فى كل قول لها أو فعل .
اخير الغزال : خير الغزلان .
كاملة الزين : كاملة الحسن .

اللى اضحات كودا : التى صار أمرها صعبا على وعقبة كأداء فى طريق حبى لها .

ورقت شق الجبال : توارت واختبأت فى شقوق الجبال • كناية عن منعتها •

ما صبت امنين : لم أجد منفذا يوصلنى اليها أو شخصا يدلنى عليها •

لا ارصامها أخلاقى طار : بسبب جمالها الساحر لم أعد قادرا على التماسك والالتزام بقواعد الأخلاق وآداب السلوك •

***

ينادى بومدين من سأله عن حبيبه كحيل العين الذى يشبه الغزال الرشيق الأنيق ساكن الخلاء ذا القرنين •

قائلا : سيدى يامن تسأل عن حبيبى صاحب الدلال المفرط والجمال المطلق •

انه قد اضحى مستعصيا على بعد أن استعصم منى بسكناه فى شقوق الجبال ، وبعد أن قام حساده بحراسته حتى صار من الصعب على أن أجده أو أصل اليه •

رسمه الجميل ضيع أخلاقى أى جعلنى ـ وأنا الوقور ـ أفقد توازنى •
لقد احببته بكل قلبى ،
وبلا أجنحة حلقت روحى فى افقه ، وكذلك عقلى •
آه من حبه الذى هيمنى وجعلنى أهبل لا أتكسب بل أتسول •
ماذا ؟ أليس فى المسلمين من يعذرنى ؟!!

***

بهذا ينتهى القسم الثالث والأخير من الكتاب وهو الحوزى •
واذا كانت لنا وقفة عنده أو بعده فلكى نقول :

انه من الأدب الشعبى المغربى فى الصميم ، وبحسبه أنه غطى كثيرا من الحاجات الفنية والذوقية لكثير من الناس ، وأعطى المتعة الموسيقية لمنشديه وسامعيه فلهذا ألف ووظف •

ولقد أدى ما أريد له أن يؤديه فى قلوب وعقول وأرواح سكان تلمسان ، لا فى زمن محدد بل فى أزمان متطاولة وممتدة الى الآن •

وكان الحوزى قد نال شهرة عظيمة فى العهد العثمانى ، واستحوذ على اهتمام المؤلفين والملحنين ، فوضعوا القواعد المحكمة لتأليفه وتلحينه بل ولكتابته ٠

فضمير الغائب (هـ) تكتب واومد [قبلتو] بدلا من [قبلته] والتاء المربوطة فى آخر المؤنث تكتب ألف مد [فاطما] بدلا من [فاطمة] ليلائم المكتوب المنطوق ٠

ونجد ألفا غير مهموزة أمام كثير من كلماته أفعالا كانت أو أسمـــاء أو حروفا ، وهى ألف موسيقية تزاد لتسهيل الانشاد ٠

وهذا الخلق للأصوات وتطويل القصير منها يعطى فرصة طيبة للوترين الصوتيين ، فهى تسمح لهما بالتذبذب العذب ، والانفتاح الرحب على العديد من الألحان ٠

***

وما ذكرناه معناه أن الحوزى لم يكن — فى كتابته — يخضع لقواعد الاملاء ، كذلك لم يكن يلتزم بالقواعد العربية من نحو وصرف وعروض ٠ ثم ان الكلمة أو الجملة فيه قد يكون لها مفهوم خاص لا يدركه الا من له خبرة باللهجة المحلية المغربية ٠

***

اما بعـــد :

فهذا عرض وتحليل لكتاب [الجواهر الحسان فى نظم اولياء تلمسان] قمت به من موقع العمل فى معهد الاداب والثقافة العربية بجامعة قسنطينه استاذا زائرا فى ابريل سنه ١٩٧٨ ٠

خدمة للتراث الادبى فى المغرب العربى ، ووصولا به وبعطواد الى كل محب له ، وراغب فى التعرف عليه والاستزادة منه ٠

***

أجزل الشـــكر وأعمق التقـــدير للأستاذ الفاضل والعـــالم المحقق عبد الحميد حاجيات ٠

على اظهاره هذا الكتاب القيم بالمظهر اللائق ٠

تنفيذ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر المحمية سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م ٠

وفي الحق انه أثرى به وبغيره مما حققه أو ألفه مكتبتنا العربية في المغرب والمشرق ٠

جزاه الله عن جهوده العلمية المخلصة خير الجزاء ، آمين ٠

د ٠ عبده عبد العزيز قلقيله

قسنطينة في ١٩٧٨/٤/٢٧

***

٣ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية

هذا الكتاب من كتب التراث التى ألفها الشيوخ المغاربة ، وأثروا بها ـ فى حينها ـ دنيا العلم والأدب ٠

والى الآن لا زلنا نستمد منها ونأخذ عنهـــا متاثرين بها ومتفاعلين معها ونحن نبنى كياننا الفكرى ، سواء بالقراءة والدرس ، أو بالكتـــابة والتأليف

وأجدنى مشدودا جدا الى التراث المغربى ، لست أدرى لماذا ؟
هل هى المعايشة للمغاربة ومؤاخاتهم ؟
أم أن المسألة نفسية بحتة ؟

ذلك أننا ربينا وعلمنا حتى حصلنا على أعلى الدرجات العلمية ، ومع ذلك لم يعترض طريقنا او لم يرد لنا أن يعترض طريقنا رافد مغربى ذو بال ٠

فدرجنا ونحن نجهل الأفق المغربى وتراثه ٠

وترتب على ذلك اننا نشأنا بل كبرنا دون أن نتوقع من أخوتنا المغاربة شيئا أى شيء ٠

***

حتى اذا أراد الله لنا الاتصال بهم ، والانتقال اليهم ومشاركتهم فى اكتشاف ذواتهم ، ونفض غبار التاريخ عن امجادهم ، أخذنا بما عندهم من علم وأدب ، ومن علماء وأدباء ، وكان احساسنا بذلك صدمة لنـــا وتأنيبا لضمائرنا على ما كان منا من قصور فى حق أنفسنا وتقصير فى حق أخوة لنا يحبوننا وينظرون الينا على أننا مطلع الاشراق لعروبتهم وأصحاب الفضل فى حمل أمانة اللغة والاسلام اليهم ٠

ولم نكن ندرى ان المغرب العربى حافل بكنوز من المعرفة تخصيهموتكفينا معهم لو اقتصرنا عليها ٠

فما الظن بنا لو أننا ـ مشارقة ومغاربة ـ تداولنا ما عندنا ،وتبادلنا

المنافع فيما بيننا ، فكمل بعضنا بعضا ، وأعطى كل منا لأخيه ما لديه نظير أن يأخذ منه ما عنده ، وهما عطاء وأخذ لا يترتب عليهما فقد أو ما يشبه الفقد ، بل على العكس يترتب عليهما الوجد والزيادة ؛ فمن المســـلم به أن شيئا لا يزاد فيه بالأخذ منه الا العلم ٠ والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ٠

***

والآن مع هذا السفر القيم :

[عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية] :

وهو مما الفه قاضى قضاة بجاية وعين أعيانها ومقدمها فى محافلهـا وسفيرها فى مهامها ابن بجدتها **أبو العباس أحمد بن أحمد الغبرينى** على اختلاف فى اسم أبيه : هل هو أحمد ـ كما هو الراجح ـ أو محمد ٠

***

والكتاب من تحقيق العالم الأديب رابح بونار ، ومن مطبوعات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠

وساوزع هذه الدراسة عنه على النقاط الآتية ٠

(أ) **بجاية** ٠
(ب) **المؤلف** ٠
(جـ) **الكتـــاب** ٠

أما الأخ المحقق فقد كنت اظن انه سهل مهمتى ويسرها لى بما قدم به بين يدى التحقيق الثالث للكتاب ٠

أجل فقد حققه قبله المغفور له الأستاذ الدكتــور محمد بن أبى شنب طيب الله ثراه ٠

وحققه قبله أو معه الأستاذ عادل نويهض ٠

لكن النسخة الام لهذه الدراسة هى النسخة المحققة من قبل الأستاذ

الفاضل رابح بونار ؛ ومعنى أنها النسخة الأم أن النسخة التى حققها الأستاذ الفاضل عادل نويهض معى وتحت يدى . وهى مطبوعة فى بيروت سنة ١٩٦٩ م ٠

***

أعود فأقول : كنت أظن ان الاستاذ رابح بونار قد سهل مهمتى ويسرها لى ٠

لكن ها أنذا اقرر أنه قد حمل مهمتى صعبة ، بتقديمه القيم للكتاب وبتعريفه الوافى به ٠

اذ ماذا اقول بعده ؟

ومع هذا فالحمد لله ، لقد استغنت بما كتب ــ وهو كثير ــ فى الاحاطة بالكتاب ومعرفة دروبه ومساربه ٠

***

ولكن واضحا أن ما اكتبه هنا ليس له من غرض سوى التعريف بالتراث المغربى ، دلالة عليه ، وتشويقا اليه ، واغراء به ٠

وكل ما أرجوه أن يقرأه "ولئك الغافون الغافلون عما للمغرب العربى من التراث الأدبى ٠

***

بجـــاية

[بجاية] كما يسميها العرب ٠

يقول ابن خلدون : ان موقع بجاية كان قرية تسكنها قبيـــلة بربرية تسمى بجـــاية أو [نقاية] فأطلق هذا الاسم على المدينــة وسميت به على عادة البربر فى اطلاق اسم أول قبيلة تنزل بموقع ما على ذلك الموقع ٠
و [بوجى] بالنطق الفرنسى أى الشمعة ٠

وربما كانت هذه التسمية آتية من شهرة بجاية بصنع الشمع والاتجار فيـــه ٠

***

و [الناصرية] كما جاء فى شعر جيد لحسن بن فكون القسنطينى قال :

دع العـــراق وبغـــداداً وشامهما فالناصرية ما ان مثلهـــــا بلد
ان تنظـــر البر فالأزهار يانعـــة أو تنظر البحر فالأمواج تطـــرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصف قل:جنة الخلد فيها الأهل والولد

وقد صدق ابن فكون ٠

فبجاية مدينة جميلة تقع على شاطىء البحر الأبيض فيما كان يعرف قديما بالمغرب الأوسط ، وهى تبعد عن قسنطينة بمقدار ٢٢٧ ك٠م ٠ الى الشمال الغربى وعن الجزائر العاصمة بنحو ٢٨٥ ك٠م ٠

وموقعها الجغرافى على خط طول ٩٠ر٥ شرقى خط جرينتش ، وخط عرض ٤٩ر٣٦ شماليه ٠

***

و [الناصرية] نسبة الى الناصر بن علناس رابع ملوك بنى حماد الصنهاجيين وقد شرع فى بنائها سنة ٤٦٠ هـ ، ولما اتمها انتقل اليها ، لكنه لم يقم فيها بصفة نهائية ، بل كان يتردد عليها وعلى القلعة ٠

وفى سنة ٤٨١ هـ ١٠٩١ م انتقل المنصور ابنه اليها نهائيا ·

ومن ذلك الوقت صارت عاصمة الحماديين ، ومن أهم مدن المغرب ·

وما ظنك بمدينه بناها الناصر وأبدع فيها قصر اللؤلؤة ؟!!

وشيد بها المنصور قصر أميمون ومسجدا كبيرا تزينه منارة عالية وواجهة بها سبع عشرة باكية . أما المياه فقد جلبها لها من الجبال المحيطة بها بواسطة القناطر المعلقة ·

وما زال الحماديون ببجاية حتى صارت مكونة من سبعة عشر حيا تضم عشرين ألف بيت واثنين وسبعين مسجدا ·

وقد أشاد المؤرخون ذى العصر الحمـادى [٤٠٥ ـ ٦٤٦ هـ] وفى العصرين الموحدى والحفصى [٦٤٧ ـ ٩١٠ هـ] بحضارتها وعظمتها ·

جاء فى دائرة المعارف للبستانى أن [الناصرية] وهو الاسم الذى أطلقه الناصر على بجاية لما تم بناؤها قصدها الناس برا وبحرا ·

وفى القرن السادس نجد الشريف الادريسى يصفها بأنها قاعدة بنى حماد بدل القلعة ، ومن كلامه عنها هذه النبذة قال :

بجاية فى وقتنا هذا (٥٤٨ هـ) مدينة المغرب الأوسط ، وعين بلاد بنى حماد ، السفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة ، والأمتعة اليها برا وبحرا مجلوبة ، والبضائع نافقة ، وأهلها مياسير يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير بها موجودان كثيران ، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ، أما الصناعات ذان بها منها ما ليس بكثير من المدن ·

***

وقد كانت بجاية ـ على عهد الغبرينى والى ما بعده بأكثر من قرنين ـ بيئة علمية نشطة ، وكعبة يقصدها طلاب العلم والأدب ، بل يقصدها العلماء والأدباء من بلاد الأندلس غربا الى بلاد فارس شرقا ·

وبحسبها علماؤها الذين ترجم (عنوان الدراية) لهم وعددهم عشرة ومائة ويمكن القول لهذا بأنها كانت العاصمة العلمية للمغرب الكبير بعامة المغرب الأوسط وهو الجمهورية الجزائرية الحالية بخاصة ٠

***

هذا عن بجاية قديما ٠

اما بجاية حديثا ، فقد زرتها يوم ١٩٧٢/٤/٣٠ وشاهدت فيها قصر اللؤلؤة الذى بناه الناصر ، وقد كان أحد عجائب الدنيا ، وهى تشبه مدينة بورسعيد المصرية فى موقعهـــا على البحر الابيض المتوسط وفى تحضرها ، والقلعة التى تحيط بها تشبه قلعة صلاح الدين فى تحصينها وعلوها ، فيها قصر العروسين الذى بناه الناصر ، يطل على القلعة وبجاية معا أعلى منار فى العالم وهو المنار الذى بناه المنصور بن الناصر ٠

وفى هذا الخضم الحافل بالآثار التاريخية توجد عين سلام وهى عين بالوادى المعروف بوادى جراوه من نواحى القلعة ٠

***

المؤلف :

هو أحمد بن أحمد بن عبد الله · كنيته أبو العباس ، ولقبه الغبريني نسبة الى أسرته [بني غبرين] وهي بطن من قبائل الأمازيغ · كانت تقطن بضواحي [اعزازقه] في أعلى وادي [سباو] بالقرب من بجاية ، وقيل : بل في بجاية نفسها ·

ولد سنة ٦٤٤ هـ ·

ومات مقتولا في سجنه سنة ٧٠٤ هـ كما قرر الأستاذ رابح بونار وهو القول الراجح ·

أو سنة ٧١٤ هـ بالطاعون في بجاية ، ويؤكد هذا الأستـــاذ عادل نويهض ·

***

حفظ القرآن الكريم ، وعني بقراءاته ورسمه في صغره ، ولما شب عن الطوق درس التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والتاريخ والمنطق وعلوم اللغة والأدب ·

وبعد أن تقدم في دراسته أخذ يحضر الحلقات العلمية التي كانت تعقد بالمساجد الكبيرة كالمسجد الأعظم ببجاية وكجامع الزيتونة بتونس ·
جاء في برنامجه أنه درس علوم الدراية وعلوم الرواية :

والأولى تحتاج الى اعمال الفكر والنظر والاستنباط ·

أما الثانية فلا تحتاج الا الى السماع والحفظ ·

كما جاء فيه أن طرق التدريس ببجاية على عهده كانت تختلف من شيخ الى آخر فمنهم من كان يسلك الطريقة التقليدية وهي الطريقة الالقائية. ومنهم من كان تعويله على الحوار والمناقشة ، والتعمق في البحث والتعليل·

وقد أفاد الغبريني من الطريقتين في تكوينه الفكري ، ولو أننا نراه في كتابه الى الرواية أقرب منه الى الدراية ، ومن التسليم بما يسمع أو يقرأ أقرب منه الى فحصه ونقده لقبوله أو رده ·

فقد كان يؤمن بالكرامات ويعنف على من يعمل فيها عقله ·

ذكر في ترجمته لابى عبد الله العربى ص ٨٠ ان هذا الشيخ المبارك الصالح كان يحج من بجاية فى بعض العشر من ذى الحجه ·

ولكى نصدقه فى ذلك يذكر ان جفنا وصل من ناحيه الشام الى بجايه وكان أبو عبد الله واقفا بحومة باب البحر فراه النصرانى صاحب الجفن وقال له : يا سيدى · مزودت الذى دفعته لى بالشام منذ ثمانيه ايام وحلف على ذلك ·

ثم يستطرد : ولما كان عام الاركش [الأرك] احتزم فى يوم من الايام وركب قصبة ومسك قصبة اخرى فى يده عوضا عن مزراق ، وجعل يكر ويفر وهو يتفصد عرقا الى أن رمى بالقصبة من يده ضاربا فى جهة عدوه وقائلا عند رميها « فى سبيل الله » ·

وسقط على الأرض من شدة جهده ومبلغ كده،فأرخ ذلك الوقتمناليوم فكان هو اليوم الذى هزم الله فيه النصارى وهو يوم الأربعاء التاسع لشعبان الحرام عام ٥٩١ هـ ·

يقول الغبرينى « فكان رضى الله عنه فى جملة المجاهدين ذلك اليوم وممن أعان الله به المسلمين وأوقع الهزيمة على يده » ·

والمهم فى هذا الخبر تعليق الغبرينى عليه بما سبق ، وبقوله بعده :

« وقد يقع فى هذا الانكار من ملحد لا علم له ، وحقه الاعراض عنه وعدم الالتفات اليه ، وان زاد فيصفع على وجهه عوضا عن قفاه » ·
ص ٨١

***

الى هذا الحد كان الغبرينى يصدق أمثال هذه الحكايات ، وكتابهحافل بالكثير منها ، يرويها على أنها حقائق مسلمة لا تخضع للمناقشة ·

فقد كان ساذجا اذن ·

والعجب أنه لما ولى القضاء بدا « مهيباً ذا معرفة بأصول الفقه وحفظ

.عروعه وقيام على النوازل وتحقيق للمسائل » كما يقول ابن الحسن النبهانى بحق فى كتابه « قضاة الأندلس ص ١٣٢ » .

فقد كان الغبريني وهو قاض يتشدد فى التزام الأحكام الشرعية وينكر على من يخالفها من أدعياء التصوف ، ويرى أن نفيهم ـ لذلك ـ من البلد قليل ، وانما الواجب أن يعاملوا بأسوأ التمثيل ويقول :

« هؤلاء جملة أغبياء : لا علم ولا عمل . ولا تصوف ولا فهم ، وهم مع ذلك يجهلون الناس ، ويعتقدون أن مبناهم على أساس » .

لكن لا عجب ؛ فهو التذبذب بين الرواية والدراية ، والتردد بين المنقول والمعقول ، وكل اناء بما فيه ينضح .

***

الكتـــاب :

بعد أن تكلمنا عن بجاية وعن المؤلف ـ المسرح والبطل ـ نتكلم عن الكتاب نفسه ، وسنتناوله من هذه النواحي :

(أ) غرضه وموضوعه ·

(ب) عرضه وتحليله ·

بتصنيف المترجم لهم فيه حسبما غلب على كل صنف منهم من علم ، ونوع هذا العلم ، أو أدب ، ونوع ذلك الأدب ، أو تصوف ، وهل هو تصوف سني أو فلسفي ·

وأيضا تصنيفهم بالنظر الى زمنهم ،ومنخلالهمسنتعرف على مشيخة الغبريني التي كانت هي السبب المباشر في تأليف هذا السفر القيم ·

أجل ، فقد عرف المغرب ، وكذلك المشرق هذا النوع من التاليف تحت اسم الثبت أو البرنامج أو المشيخة ·

يترجمون فيه لأساتذتهم بتحديد أعمارهم وتوضيح مسارهم في حياتهم وفي دروسهم ، والعلوم التي تلقوها عنهم ، والكتب التي قرأوها عليهـــم ويذكرون انتاجهم الذي أنتجوه وما اشتهروا به بين ذويهم وغيرهم ·

***

واذا كان للأستاذ ـ بدوره ـ مشيخـــة ذكروها وعرفوا بها ، ولربما تعقبوه في تلاميذه الذين أسهم بقدر كبير في تكوينهم حتى صاروا امتدادا له ، وعنوانا عليه ، وطلابا نابهين في مدرسته ·
ونختم هذه الدراسة بكلمة موجزة عن : ـ

٣ ـ أسلوب الكتاب ومنهج صاحبه في تأليفه ·

ـ ١ ـ

غرض الكتاب وموضوعه

افصح المؤلف عن غرض الكتاب وموضوعه بقوله في مقدمته : ـ

أما بعد : فانه لما كان طلب العلم اللدنى (الدينى) فرضا على الكفاية ، ومتعينا في الحال ، ولم يكن بد في تحصيله من تلقيه عن الرجال وكان التلقي اما مباشرة أو عن سند ذى اتصال ، وكان العلماء بذكر معرفته ، والسند عنه لا بد أن تعرف صفته ؛ فلذلك اهتم العلماء بذكر الرجال ، واستعملوا في تمييز أحوالهم الفكر والبال ، ليبينوا سبيل التحمل ، ويبينوا وسيلة التوصل ، وقد اختلفت في ذلك مصادرهم ومواردهم ، وان اتفقت في بعض الوجوه مقاصدهم :

فمنهم من ذكر التجريح والتعديل في المحدثين ،
ومنهم من ذكر من يعرف بالحفظ والاتقان من المتقدمين ،
ومنهم من اقتصر على ذكر العلماء المجتهدين ،
ومنهم من ذكر المؤلفين والمصنفين ،
ومنهم من ذكر الصلحاء والمتعبدين ،
ومنهم من ذكر علماء وقته ،
ومنهم من اقتصر على ذكر مشيخته ،
وكل ذلك يحصل الافادة ، ويسهل للطالب مراده ،

رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذى هو خاتمتها ، أذكر منهم من اشتهر ذكره ، ونبل قدره ، وظهرت جلالته وعرفت مرتبته في العلم ومكانته »

***

الى هنا والغرض واضح والموضوع محدد ،

لكن المؤلف رحمه الله قد رجع الى الوراء قليلا ليصل نهاية القرن السادس ببداية القرن السابع ، ها هو ذا يقول : ـ

« وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ذكر الشيخ أبي مدين

، الشيخ أبى على المسيلى ، والفقيه أبى محمد عبد الحق الاشبيلى رحمهم الله ورضى عنهم ، لقرب عهدهم بهذه المائة ، لأنهم كانوا فى أعقاب السادسة للتبرك بذكرهم ، ولانتشار فخرهم » ٠

ولم يقتصر الغبرينى على الثلاثة الذين ذكرهم بل أتبعهم بأربعة غيرهم سنعرض لهم ٠

وقد بدأ بهؤلاء السبعة وثنى بمشيخته على الوجه الآتى :ـ

- ٢ -

عرض الكتاب وتحليله

علماء القرن السادس

بدأ الغبرينى فعرف بالولى الصـــالح ابى مدين شعيب بن الحسين الاندلسى المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ووصفه بأنه الشيخ الفقيه المحقق الواصـــل القطب شيخ مشايخ الاسلام فى عصره ، ومثل لذكائه وحسن تصرفه ومدى الكشف عن بصيرته بحكاية فحواها أن شمواهب لا تسعها المكاسب قال :ـ

أخبرنى بعض الأصحاب أن بعض الطلبة وقع بينهم نزاع فى بعض الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله عليه السلام : ـ

« اذا مات المؤمن أعطى نصف الجنة » فتردد الكلام بينهم فى أن مؤمنين اذا ماتا استحقا الجنة وبقى الناس أجمع دون شىء ، فساروا الى مجلس أبى مدين ليطلعوا على ما عنده فى المسألة ، فلما استقروا بمجلسه ترك الشيخ كلامه الذى كان يتحدث فيه وقال : نزيل عن أصحابنا الاشكال ، ثم قال : ـ

أراد صلى الله عليه وسلم نصف جنته ، وبعد الحشر يعطى النصف الثانى من جنته . فبعد البعث تكمل له جنته ٠

وبعد ذكر بعض كراماته يحكى نهاية حياته على الوجه الذى ذكرناه فى الحلقة السابقة ٠

ويختتم ترجمته له بصفحتين من مأثور كلامه كقوله :

« ثمرة التصوف تسليم كلك » ٠
« مروءتك اعطاؤك عن تقصير غيرك » ٠
« من شغل مشغولا بربه ، أدركه المقت فى الوقت »
ص ٦٢ ـ ٦٥

***

ولا نجد فى ترجمة المسيلى أكثر مما وجدنا فى ترجمة أبى مدين ٠

واذا كان الناس يلقبونه بأبى حامد الصغير ، تشبيها له بالغزالى . فان الغبرينى يجعل سبب ذلك كتابه [التفكير فيما تشتمل عليه الآيات من المبادىء والغايات] ٠

فهو كتاب جليل سلك فيه مسلك أبى حامد فى كتـــاب [الأحياء] ويستطرد مبالغا فيقول : ـ

« وكلامه فيه أحسن من كلام ابى حامد واسلم ، وهو كثير الوجود بأيدى الناس ، وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتنـــاء النـــاس به وايثارهم له » ٠

وما بعد ذلك حكايات أولياء يقولها معجبا بها ومصدقا لها ، وهذا هو الغبرينى دائما ص ٦٦ ـ ٧٢ ٠

***

وثالث أهل القرن السادس هو الأشبيلى ٠

والغبرينى لا يكل ولا يمل من اضافة كل صفات الفضل الى من يترجم لهم ٠ ها هو ذا يستهل كلامه عن الاشبيلى بقوله :

الامام الشيخ الفقيه الجليل المحدث الحافظ المتقن المجيد العابد الزاهد القاضى الخطيب ٠

اثنتا عشرة خصلة ، أى أنه يثنى بالجملة شكرالله له فضله،فلأنه جميل يرى الوجود جميلا ٠

والاشبيلي ثري بمؤلفاته التي تداولها العلماء رواية وقراءة وشرحا وتبينا ٠

له الاحكام الكبرى فى الحديث ، والاحكام الصغرى فيه ، وله كتاب فى علم التذكير وله كتاب التهجد ، وله اختصار الرشاطي ، يقول الغبريني : -

وهو أحسن من الاصل ، وله الحاوي فى اللغة ، ثمانية عشر مجلدا ومع أنه كان متخليا عن الدنيا ، فقد كانت الوصيفة من داره تأتي الى مجلسه لقضاء بعض مآرب منزله ، فاذا أتته تطلب منه ما يقضي بالشيء اليسير ، يخرج لها أضعاف ذلك ، وربما قال له بعض الحاضرين : -

هذا أكثر من المطلوب ، فيرد عليه بقوله : - لا أجمع على أهل المنزل ثلاث شينات : شيخ واشبيلي وشحيح ٠ تكفى اثنتان ٠ يقول الغبريني وهذا من لوذعته وطيب طينته ص ٧٣ و ٧٥ ٠

***

وكما قلنا ٠ لم يقف الغبريني من علماء القرن السادس عند الثلاثة الذين ذكرهم ، فها هو ذا يتبعهم بترجمة مسهبة لأبي طاهر عمارة بن يحيى ابن عمارة الشريف الحسني الذي كان متقدما فى علم العربية والأدب وتواشيحه لهذا فى غاية الحسن ٠

هكذا قال الغبريني ، والشعر الذي أورده له يؤيد كلامه ٠

***

أما ابنة عمارة المسماة عائشة ، فقد كانت كأبيها أديبة أريبة فصيحة لبيبة طارحت بشعرها ابن فكون القسنطيني ٠

يذكر الغبريني أنه رأى يتيمة الدهر للثعالبي بخطها فى ثمانية عشر جزءا ، ويصفها بأنها « نسخة عتيقة ما رأيت احسن منها ولا أصح ، ولقد رأيت منه نسخا كثيرة منتقدة الا هذه النسخة ، ولقد يجب أن تكون هذه النسخة أصلا لهذا الكتاب حيث كان » ص ٧٦ - ٨٠

***

وبعد عائشـــة وأبيها عمـــارة نجد ترجمتين لأبى عبد الله
ص ٨٠ ـ ٨٢ ٠

يقول الغبرينى : انه لا يعلم له وقت ولادة ولا وفاة وأرجح
قبل سنة ٦٠٠ هـ وأبى الفضـــل بن محمد بن على بن طاهر بن تمي
الذى عاش ما بين سنتى ٥٤٠ و ٥٩٨ هـ ٠ ص ٨٣ ـ ٨٥

وبعلماء وأدباء القرن السادس تنتهى المرحلة التمهيـــدية
عنوان الدراية » ٠

ونجد أنفسنا أمام أدباء وعلماء القرن السابع ببجاية ٠
عددهم ثلاثة ومائة ما بين عالم وأديب ومتصوف

أجل ٠ ان العلم والادب والتصوف كانت القاسم المشـــترك
بينهم جميعا ٠

ومع هذا فلا بأس ، بل لا بد من تصنيفهم ناظرين فى هذا
الى اللون الغالب على أحدهم وهو اللون الذى يأتى فيه قبل غيره ،
الاقل جنبا الى جنب مع غيره ٠

مشيخة الغبريني

- ١ -

أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الانصارى البجائى

أديب فقيه أصولى منطقى متصوف ولد ببجاية وقرأ بها ٠

كان ابن مقلة زمانه فى حسن الخط وتنوعه ، وكانت فيه دعابة مستحسنة مستظرفة على طريقة أمثاله من فضلاء أهل العلم والتخلق ، وكان اذا أثنى عليه بحسن الخلق يقول : ـ قال النبى صلى الله عليه وسلم : ـ

« أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن » ٠

ومن لم يكن عنده أول ما يوضع فى الميزان لم يكن عند غيره ؛ لأن هذا انما يجرى مجرى الأساس ، والله ما بت قط وفى نفسى شر لمسلم ٠

يقول الغبرينى : ـ كان القاضى على القضاة بالحقيقة ، لأن مرجع أمرهم انما كان اليه ، وسمعت كثيرا من أهل العلم يثنون عليه ويقولون : انه لم يكن فى وقته بمغربنا الأوسط مثله ٠ ت سنة ٦٧٥ هـ ص ٨٥ ـ ٩٠ ٠

- ٢ -

أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف
٦٠٢ ـ ٦٨٦ هـ

فقيه محدث أديب ، قرأ ببجاية ولقى بها جملة من الفضلاء ٠

أسند اليه قضاء الانكحة ببجاية ، وولى القضاء مستقلا بعد ذلك ببسكرة وقسنطينة والجزائر ٠ كان له درس بالغداة ودرس بين الصلاتين ودرس بعد العشاءين ، دأب على هذا مدة طويلة من عمره واقتصر بعده على تدريس درسين : أحدهما فى مسجده بالغداة والآخر بالجامع الاعظم بين

الصلاتين ، وكان مبارك التعليم حسن النقيبة فى التفهيم ، درس عليه العلم خلق كثير وانتفعوا به ٠

يقول الغبرينى : ـ قرأت عليه رحمه الله وحضرت دروسه وسمعت منه كثيرا ، قرأت عليه الجلاب ، وقرأت بعده الموطأ بالجامع الأعظم ٠
ص ٩١ ـ ٩٢

ـ ٣ ـ

ابو محمد عبد الله بن محمد بن عمر بن عبادة القلعى
ت ٦٦٩ هـ

فقيه حافظ مؤرخ من قلعة بنى حماد ، تعلم فى بجايه ، يقـــــول الغبرينى : ـ

قرأت عليه رحمه الله وسمعت منه وأخـــذت عنه ، وهو أول من بدأت قراءة الفقه عليه ، وكان يبدأ فى مجلسه بالرقائق ، وبعد ذلك بقراءة الفقه والحديث والرواية ٠

كانت له ببجايه وجاهة ونبـــاهة ، وكانت جموع الأمراء فى الامور المجتمع لها لا تنعقد الا بوجوده ، وكان لسان الناس فيها ص ٨١ ٠

ـ ٤ ـ

أبو عبد الله محمد بن الحسن بن على بن ميمـــون التميمى القلعى
ت ٦٧٣ هـ

أديب لغوى نحوى مؤرخ محدث مفسر فقيه ابن جنى المغرب وشهرته الأديب ٠

أورد له المصنف جزئين كبيرين من قصيدتين جيدتين وشبهه فى الشعر بأبى تمام ٠ قال : ـ

هو أكثر الناس شعرا ، وقد شرع فى تدوين شعره عام ٦٣٠ هـ ، وهو فى كل عام يقول منه ما يكتب فى ديوان ، وعاش بعد شروعه فى تدوين

شعره ثلاثا واربعين سنة ، ولو تم له تدوينه لكان فى مجلدات كثيرة ولكن بأيدى الناس منه كثير ، وتواشيحه حسنة جدا ٠

وعن علمه وكتبه وخلقه يقول الغبرينى : -

لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة أعوام،وقد استمتعت به كثيرا واستفدت منه كثيرا ، قرأت عليه الايضاح من فاتحته الى خاتمته وقرأت عليه النصف من كتاب سيبويه ، وقرأت عليه قانون أبى موسى الجزولى ، وقرأت عليه جملة من الامالى ومن زهر الآداب ومن المقامات ، وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبى ، وحضرت قراءة المفصل ٠

له كتاب سماه [الموضح فى علم النحو] وله [حدق العيون فى تنقيح القانون] وله [نشر الخفى فى مشكلات أبى على]

كان فيه فضل وسخاء ، وكانت يده ويد الطلبة فى كتبه لهذا سواء لكأنه كان يتمثل بقول الأول : -

كتبى لأهل العلم مبذولة
يدى مثل أيديهم فيها
أعارنا أشياخنا كتبهم
وسنة الأشياخ نمضيها
ص ٩٤ - ٩٩

- ٥ -

أبو العباس أحمد بن خالد المالقى

فقيه متصوف متوكل . وبالرغم من عكوفه عشرين سنة على قراءة ارسطو وتدريسه لطلبته علم المنطق والاشارات والتنبيهات لابن سينا من اولها الى آخرها ومشاركته فى الطب والحكمة والطبيعيات والالهيات ٠

الا انه كان متحملا لأصول الفقه ولأصول الدين على طريقة الائمة المتقدمين اى على طريقة أهل السنة . وكان لا يرى بطريقة فخر الدين

الرازى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ لا لشيء الا لأنها كانت قائمة على الأبحاث الفلسفية ومعتمدة على اعمال النظر ٠

قرأ عليه الغبرينى جملة من الارشاد ، وجملة من المستصفى ، وبعض معيار العلم فى المنطق ٠ توفى ببجاية فى عشر الستين وستمائة ٠
ص ١٠٠

- ٦ -

ابو القاسم محمد بن احمد بن محمد الأموى

فقيه حكيم طبيب معالج متخصص فى أمراض النساء والولادة ٠
ورد على بجاية من مرسية فى عشر الستين وستمائة مستوطنا ٠

قرأ عليه الغبرينى قانون ابى موسى الجزولى وارجوزة ابن سينا قراءة اتقان ، وقد انتقل الى تونس بسبب استدعاء المستنصر الحفصى له ، ونظمه اياه فى سلك أطبائه ، وكانت وفاته بها سنة ٦٧٤ هـ ٠
ص ١٠١ ـ ١٠٢

- ٧ -

ابو الحجاج يوسف بن سعيد بن يخلف الجزائرى

أديب نحوى لغوى فقيه منطقى ٠ حضر الغبرينى دروسه التى كان يقرأ فيها الايضاح والجمل والمفصل وقانون ابى موسى الجزولى ومقدمة ابن باب شاذ واصلاح المنطق ، وأشعار الجاهليين وحبيب والمتنبى والمعرى وديوان الحماسة والمقامات والامالى وغير ذلك من الكتب الادبية واللغوية والنحوية ص ١٠٣ ٠

- ٨ -

ابو عبد الله محمد بن صالح بن احمد الكنانى الشاطبى

اديب نحوى عالم بالقراءات لغوى محدث متصوف له شعر جيد استجاز واجاز ٠

وهو أندلسى الأصل استوطن بجاية وكان حيا بها سنة ٦٩٩ هـ وربما كانت هذه الترجمة أول ترجمة لحى فى عنوان الدراية

يقول الغبرينى عنه وهو شاهد رؤية : يقرأ كتب العربية فيجيد وأجود ذلك مفصل الزمخشرى قرأه وأحكمه ، وهو كذلك يقرئه ويجيد فيه ، وتقرأ عليه دواوين الاشعار كشعر حبيب والمتنبى والمعرى وأشعار الجامليين وغير ذلك وكل ذلك على اتقان واحكام وجودة ايراد ٠

ـ ٩ ـ

ابو العباس احمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفى الشاطبى
ت ٦٧٤ هـ

فقيه عالم بالقراءات راوية خبير فى قواعد الاملاء والخط وله فى ذلك تاليف جيد لقى الكثير من المشايخ ببجاية ، وروى عنـه الغبرينى بعض كتب الحديث واستفاد منه فى علم القراءات وفى طريق الضبط ٠

ص ١٠٨ ـ ١١١

ـ ١٠ ـ

ابو العباس احمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغمارى
ت ٦٨٢ هـ

عالم ذكى فقيه من أهل النظر على طريقة فخر الدين الرازى ، ولاعجب فقد كان مغرما به يثنى عليه كثيرا ولا يرى له نظيرا ٠

حضر الغبرينى دروسه التى كانت تتناول الرقائق والفقـه وأصوله تولى قضاء العلمية مرة وبجاية مرتين ٠

ولما نزل امير المؤمنين المستنصر على قسنطينة وجه عنـه واعتنى به وسأله عن بجاية وأهلها ٠

قالوا : فأجاب بما يليق به الجواب ، ولعل ذلك هو السبب فى انتقاله الى تونس وبقائه فيها الى أن مات بها سنة ٦٨٢ هـ :

ص ١١٢ ـ ١١٣

- ١١ -

أبو القاسم بن أبى بكر اليمنى بن زيتون
ت ٦٩١ هـ

متكلم منطقى فقيه ، وفقهه جار على قوانين النظر والاجتهاد ٠
ولد ومات بتونس ، لكنه كان يتردد على بجاية وقد لقيه الغبرينى فى الموطنين ٠

ص ١١٤ ــ ١١٥

- ١٢ -

أبو القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسى

فقيه متصوف سنى محدث ولى له اهتمام بالقراءات وعلم العربيـــة وطريق الصالحين ٠ استوطن بجاية مدة من الزمان وأقرأ بها وانتفع به الناس علما وعملا ، وكان اذا جلس للاقراء يحضر بين يديه الكتب المقروءة عليه . فاذا فتح الطالب الكتاب ، أخـــذ هو الكتاب فى يده ويقرأ الطالب وتقع المعارضة ، وحينئذ يقع الشرح منه لما يقرأه القارىء ، وهذا من تثبته وتحوطه رضى الله عنه ٠

توفى بتونس فى عشر السبعين وستمائة أيام الواثق [٦٧٥ــ٦٧٨هـ]٠
ص ١١٦ ــ ١١٨

- ١٣ -

أبو زكرياء يحيى بن زكرياء بن محجوبة القرشى السطيفى
ت ٦٧٧ هـ

عالم فقيه متصوف ولى ذو كرامات ، كان مستجاب الدعوة ، بلغ من فضله وزهده أن عرض عليه الأمير أبو يحيى أن يجعل له مرتبا من أعشار الديوان فى كل شهر فامتنـــع عن ذلك وقال : ان اسمى فى ديوان الوجود المطلق فلا أجعله فى الديوان المقيد لأن الاطلاق أوسع من التقييد ، وهو فى ديوان الحق فلا أجعله فى ديوان الخلق ٠

له تأليف حسن فى شرح أسماء الله الحسنى ، وله فى التصوف تقاييد

كثيرة ، وله نظم حسن ، وقطع مستحسنة ، كلها فى المعانى الصوفية ٠

قال الغبرينى : كنت فى زمان الشباب نظمت القصيدة الصوفية التى مطلعهـــا :

واحيرة العشاق بالرقبـــاء   حرموا الوصول لطيبة الوسعاء

وهى فى نحو اربعين بيتا فحملتها اليه وانشدتها بين يديه ففرح بهـــا غاية الفرح وجعل يدعو ويقول : بصرك الله لمعانيها وأطلعك على ما فيها ، لأن الحال كان حال شبيبة فاعتقد الشيخ رحمه الله أن ما أتيت به فيها انما هو على سبيل الصناعة لا على سبيل الاطلاع والشهود والله يؤتى الفضل من يشاء ٠

توفى رحمه الله ببجاية فى غرة ذى القعدة عام سبعةوسبعينوستمائة٠
ص ١١٩ ـ ١٢٠

ـ ١٤ ـ

ابو الحسن عبيد الله بن أحمد بن عبد المجيد بن عمر بن يحيى الأزدى
٦٠١ ـ ٦٩١ هـ

عالم فقيه ولى ، لكنه كان لا يتسامح فى شىء مما يخالف ظاهرالشريعة ولا يقر شطحات المتصوفة ٠

من أهل رندة واستوطن بجاية الى أن توفى بها ٠
ص ١٢١

ـ ١٥ ـ

أبو محمد عبد المجيد بن أبى البركات بن أبى الدنيا الصدفى الطرابلسى

خرج الغبرينى على شرط كتابه وترجـــم له على الرغم من أنه لم ير بجاية ولم تره ، وانما ذكره لأنه من مشيخته ، فقد لقيه بتونس وتبرك به ٠

وهو عالم فى الأصول على طريقة الأقدمين وفى الفقه على طريقـــة

القرويين وهى طريقة تعتمد على الحفظ والنقل دون اعمال النظر والاجتهاد .
ومع هذا فقد كانت له عقيدة فى علم الكلام ، توفى عشر الثمانين وستمائة .
ص ١٢٢

- ١٦ -

ابو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن عتيق الغسانى الجزائرى

أديب منشىء له شعر رائق وكتب أدبى فائق ، وهو الى ذلك عالم فقيه شغل منصب قاضى بجاية ، وهو أصلا من مدينة الجزائر توفى بعد سنة ٦٧٠ هـ بتونس .

يقول الغبرينى : صحبناه واستفدنا منه واهتدينا بهديه وتعرفنا بركة رأيه رحمه الله وغفر له .

من شعره فى وصف مشاهد القيامة والشفاعة :

ص ١٢٥

لكل نبى دعوة مستجابة
وسيدهم طرا خباها لأمته
الى يوم لا يغنى عن المرء منطق
فصيح ولا يدلى البليغ بحجته
ويوم يفر المرء من ولد له
حبيب ولا يجزى أب بأبوته
ترى الناس فيه بين باك وصارخ
وذاكر ما قد فات من فرط زلته
فكل به حيران يندب شجوه
وسكران لا من خمرة بل بغمرته
وكل نبى يسأل الله نفسه
ويضرب صفحا عن سؤال لأمته
خلا شافع فينا كريم مشفع
به يشمل الله العباد برحمته

- ١٧ -

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي
ت ٦٩١ هـ

فقيه أصولي لغوي طبيب متبحر ، تخطط بخطة القضاء في غير ما بلد ثم قضى ببجاية ، وبعدها ولي قضاء حاضرة افريقية ، ووجهه ملك افريقيـة رسولا الى صاحب الديار المصرية فحمد مسعاه وشكر منحاه توفي بتونس سنة ٦٩١ هـ .

ص ١٢٦ ـ ١٢٨

- ١٨ -

ابو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز الانصاري البلنسي
٦١٩ ـ ٦٩٣

عالم أديب له شعر في الزهد والتصوف ، من أهل بلنسية .

استوطن بجاية وولي قضاءها واقامة الفريضة بجامعهـا الأعظم ثم استدعى لحاضرة افريقية وقدم للقضاء بها أكثر من مرة .

يقول الغبريني : رأيته ببجاية ولقيته بها ، ورأيته أيضا بتونس رؤية جيدة ، واستفدت من أخلاقه ، ومن الاطلاع على أحكامه بحضوري مجلسه .

ومن عجائب الصدف أنه ولد ببلنسية يوم عاشوراء سنة ٦٠٩ هـ وهو عام العقاب ، وتوفي بتونس يوم عاشوراء عام ٦٩٣ هـ .
من شعره :

أمـا آن للنفس أن تخشعـا
أمـا آن للقـلب أن يقلعـا
أليس الثمـانون قد أقبلت
فلم تبـق في لذة مطمعـا
تقضى الزمـان ولا مطمـع
لما قد مضى منـه أن يرجعـا

ص ١٢٩ ـ ٣١ .

- ١٩ -

أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم السجلماسى

متصوف عابد زاهد ولى . لقى مشيخة فاضلة بالمغرب والمشرق كان قويا فى علم التوحيد . وكان يرى أن التوصل الى الحقائق ، والترقى الى أعلى المراقى لا يكون الا بالتوحيد . وتلمذة الغبرينى عليه تلمذة فى التصوف . توفى بقلعة بنى حماد .

ص ١٣٢ ــ ١٣٣

- ٢٠ -

أبو الحسن على بن محمد الزواوى اليتورغى

زاهد ولى ذو كرامات لقيه الغبرينى وهو على أول السن ببلدة بنى يتورغ بموضع سكناه منها .

ويقول فى نهاية ترجمته له « فهذه المشيخة التى لقيتها وتخيرتها للمشيخة على وانتقيتها نفع الله بها . وهذا أوان ذكر من بقى من العلماء الذين اشترطت فى الكتاب ذكرهم رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين » .
ص ١٣٣ ــ ١٣٤

وقبل أن ننصرف عن مشيخة الغبرينى ننبه الى أن الطابع الغالب عليهم هو العلم أولا والتصوف أو الولاية ثانية .

أما الأدب فيأتى بعد .

دليلنا على ذلك أنهم عشرون منهم خمسة فقط يغلب عليهم الأدب وهم الأنصارى والتميمى وابن سعيد والشاطبى والغسانى .
وبالعد الحسابى ١ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١٦ .

وقد ترك ذلك أثره على الغبرينى ، فهو ــ كمشيخته ــ عالم سلفى يؤمن بالكرامات ولو كانت خرافات .

هذا أولا .

أما ثانيا فهو اديب بارع فى الكتابة .

ومن شعره قوله :

لا تنكحن سرك المكنون خاطبه
واجعل لميته بين الحشا جدثا
ولا تقل : نفثة المصدور راحته
كم نافث روحه من صدره نفثا

علماء وأدباء بجاية من غير مشيخة الغبريني

- ١ -

أبو زكرياء يحيى بن أبي على المشتهر بالزواوى
ت ٦١١ هـ

عالم فقيه محدث مفسر صالح عابد ولى من أهل طريق الحق ، استوطن بجاية بعد عودته من المشرق ومات بها فى ١٤ من رمضان سنة ٦١١ هـ

وابتداء من هذه الترجمة نجد الغبرينى صاحب رأى ورأى واضح متسع فى أمور التصوف والتذكير والزهد ، لست أدرى لماذا ؟

لعله النضج والانفسـلات من قيود الأدب أو التأدب اللازم فى حضرة المشيخة ٠

يقول عن صاحبه الزواوى ما نصه : « وكان الغالب عليه رضى الله عنه الخوف ٠ ما يمر بمجلسه الا ذكر النار والاغلال والسعير ، وتكاد تفيض قلوب الناس فى مجلسه ، هذا هو حاله دائما ، وهـذه الطريق هى أحسن الطرق فى الدعاء الى الله تعالى : اذ جبل الله الخلق على أنهم لا ينفعلون غالبا الا بالخوف ، ولأجل هذا كان أكثر الشريعة تخويفا » ٠

لكنه أى الغبرينى أو الزواوى أو هما معا قد وقعا فى التنـــاقض الصارخ ٠

واقرأ معى هذا الكلام الذى جاء فى أعقاب الكلام السابق بلا فاصل أى فاصل قال :

« وما زال رضى الله عنه مستمرا على هذه الحال الى يوم وفاته يبسط أمل الناس ورجاءهم فى رحمة الله وفى سعة مغفرته ، ومناهم بما عنده عن كثرة الثواب ، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا الى غير ذلك مما اشتمل عليه مجلسه ٠

وهذا طريق حسن ؛ لأنه لم يبق عند لقاء الله الا الطمع فى رحمتـــه

والرغبة فيما عنده . لأن الخوف فائدته انما هي الحض على العمل . وحين الموت انقطع العمل ، ولم يبق الا قوة الأمل لتلقى الله طيبة نفسه فيحب لقاء الله فيحب الله لقاءه حسبما اقتضاه الحديث » ٠

***

ويظهر أن الشيخين الزواوى والغبرينى كانا يريان قبض النفس الانسانية وزجرها بالوعيد ، ثم بسطها واغراءها بالوعود ٠

والله أعلم ٠

ص ١٣٥ ـ ١٣٩

ـ ٢ ـ

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى القلعى

عالم فقيه نحوى مقرىء خطيب راوية من أهل بجاية ٠

كان اذا أحيا ليلة القدر يرغب الناس فى القيام خلفه لصدق قراءته . بما فيهم والى بجاية عبد الله بن يؤمن ، وكان يصلى وراءه قائما لا يركن الى الجلوس ، فاذا قرأ غيره ممن يعينه جلس ٠ وهذا تقدير كبير للمترجم له ٠

ص ١٤٠

ـ ٣ ـ

أبو محمد عطية الله بن منصور الزواوى اليراتنى

عالم فقيه عابد حافظ ٠

ولا يزال الغبرينى على تسليمه بكرامات الأولياء دون مناقشة ٠

ص ١٤١

ـ ٤ ـ

على بن أبى نصر فتح بن عبد الله

٦٠٦ ـ ٦٥٢

عالم فقيه محدث عابد ورع ٠ من أهل بجاية رحل الى الأندلس والى الشرق ثم استقر ببجاية ٠

ص ١٤٢ ـ ١٤٤

ـ ٥ ـ

ابو الحسن على بن احمد بن الحسن بن ابراهيم الحرالى التجيبى

شرق هذا الشيخ وغرب وعاش فى بجاية مدة ، كان معظما لأهل البيت معترفا بالاسترقاق لهم ، كما كان زاهدا زهدا حقيقيا بالظاهر والباطن ·

أما علمه فحدث عنه ولا حرج ، ولندع الغبرينى يتكلم قال :

وممن لقى بالمشرق الامام ابو عبد الله محمد القرطبى امام الحرم الشريف قال رحمه الله : « تعلمنا عليه الفاتحة فى نحو من ستة أشهر ، وكان يلقى فى التفسير قوانين تتنزل فى علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام ، الى أن من الله ببركات ومواهب لا تحصى مما لا عين رأته ولا اذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر » ·

ويسترد الغبرينى الكلام من الامام ليقول :

جمع رحمه الله فنون العلم بجملتها واستولى على كليتها :

اما علم الأصول ، فأصول الدين وأصول الفقه هو أعلم الناس بها وقد صنف فيها ·

وأما معقولات الحكماء ، فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه [المعقولات الأول] ·

وأما علم الطبيعيات والالهيات فكان أعلم الناس بها ·
أخبرنى شيخنا أبو محمد بن عبد الحق رحمه الله تعالى : قال لى :

كنا نقرأ عليه [النجاة] لابن سينا ، فكان ينقض عراه نقضا وذلك بعد أن يوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه » ·

وأما علم التعاليم فكان أعلم الناس بها ، وأما علم الفقه فكان أعلم الناس به منقوله ومعقوله ·

وأما علم التفسير ، فكان يورد الآى ويناسقها نسقا بديعا ويتكلم فيها

بما لم يسبق اليه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير وتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا .

وعلم الحديث كان له فيه تقدم وعلو سند .
وعلم العربية لغة ونحوا وأدبا كان متقدما فيه .

له التآليف الحسنة ، وله الشعر الفائق الرائق غزلا وتصوفا ، وله فى علم الفرائض ما لم يسبق اليه .

وأما علم التصوف فهو فيه الامام .

وبالجملة فحيث تكلم فى علم يعتقد الناظر فيه أنه لا يعرف غيره .

وما من علم الا وله فيـــه تصنيف وتأليف وهو من أحسن التصانيف واجل التآليف .

ولعمرى ان كتابه فى علم الفرائض المسمى (الوافى) ما رايت مثله فى ذلك الفن . وكذلك كل ما طالعته من كلامه فى أصول الفقه وأصول الدين وعلم المنطق وعلم العربية وعلم التصوف وغير ذلك من سائر ما تحدث فيه رضى الله عنه .

***

والغبرينى ـ كما نرى ـ مفتون بصاحبه ، فلا عجب أن كال له بالكيل الوافى ، وذهب فيه الى ما لا يعقل قال :

ولقد زهد رضى الله عنه حتى فى الكتب ؛ فانه لم يكن عنده منها شىء ، وكان لا يفتقر فى مواعيده الى مطالعة شىء ؛ لاحاطته وتحصيله ، وجميـع ما صنفه من الكتب ما كان يراجع فيه كتابا ولا يطالع فيه سوى مجرد فكره وتسديد رأيه .

توفى رحمه الله بحماه من بلاد الشام سنة ٦٣٧ هـ .

ص ١٤٥ ـ ١٥٧

- ٦ -

بو عبد الله محمد بن على الطائى الحاتمى محيى الدين بن عربى المرسى

عالم فقيه متصوف لكن تصوفه من النوع الفلسفى · أصله من مرسية دخل بجاية سنة ٥٩٧ ، وأقام بها مدة ·

له من التاليف ما هو أكثر من الكثير ، وكلها فى علم التصوف ، يقول الغبرينى : وفيها ما فيها ·
ان قيض الله من يسامح ويتأول الخير سهل المرام ·
وان كان ممن ينظر بحسب الظاهر ولا يتسامح فى نظر ناظر ، فالأمر صعب ، والملتقى وعر ·

ولقد صدقت نبوءة الغبرينى ، فقد نقد عليه أهل مصر ما صدر عنه وحبسوه تمهيدا لقتله ، كما قتل الحلاج وأشباهه ·

لكن الشيخ أبا الحسن على بن أبى نصر فتح بن عبد الله البجائى ما زال ساعيا فى أمره ، ومظهرا من وجوه التأويل فى شانه ما اقتضى الاعراض عن زلته والمسامحة فى هفوته ·

ولما غدا ابن عربى حرا ذهب الى البجائى وقال له :
كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت ؟!

فأجابه البجائى : يا سيدى تلك شطحات فى محل سكر ولا عتب على سكران ·
توفى رحمه الله فى نحو الأربعين وستمائة ·

ص ١٥٨ ـ ١٦٠

- ٧ -

أبو الفضل قاسم بن محمد القرشى القرطبى
ت ٦٦٢ هـ

عالم فقيه صالح زاهد مستجاب الدعوة ذو كرامات كثيرة خرج من قرطبة الى بجاية وسنه عشر سنوات ·

ص ١٦١ ـ ١٦٤

- ٨ -

أبو زكرياء المرجاني الموصلي

نسبة الى الموصل بالعراق ، ولكنه عاش فى بجاية فترة ، صالح ورع كاشف فقيه .

ص ١٦٥

- ٩ -

تقي الدين الموصلي

ولي أمي لا يقرأ ولا يكتب ، رحالة لم يبق عليـه من الأقاليم اقليم الا سلكه وكان يحدث عن غرائب وعجائب . وصل الى بجاية فى مدة الشيخ ابى الحسن الحرالي وكان يقول عنه : انه من أساطين الحكمة وأنه كقس ابن ساعدة وزيد بن عمر بن نفيل هداه الله الى الحق بموجدة نفسه من غير اكتساب ، وتوصل الى ما يتوصل اليه أهل البراهين من خالص الصواب .

نسبته الى الموصل كسابقه ولم يظل ببجاية بل تركهـا الى المغرب الاقصى .

ص ١٦٦ - ١٦٧

- ١٠ -

ابو العباس الجدلي الشريف

أصله من اصبهان ، ورد بجاية وأقام بها مدة ثم انصرف الى المغرب وهو فقيه محدث جدلي .

ص ١٦٨

- ١١ -

ابو النجم هلال بن يونس الغبريني

فقيه عابد ولي بجائي .

ص ١٦٩

- ١٢ -

أبو عبد الله محمد بن على القصرى

من اهل بجاية . كان عالما بالفقه واصول الفقه وأصول الدين ، بارعا فى علم العربية . متقـــدما فى علم التصوف ، سيدا فى طريق الانقطـــاع والعبادة . متواضعا موصوفا بالتقوى على ما عليه السلف الصالح رضى الله عنهم .

ص ١٧٠

- ١٣ -

أبو العباس احمد بن عثمان بن عبد المتوسى الملياني
ت ٦٤٤ هـ

سكن بجاية واقرأ بها واسمع . له علم بالعربية والفقه وأصول الدين وحظ من التصوف والعبادة .

ص ١٧١ ــ ١٧٢

- ١٤ -

أبو عبد الله بن شعيب

عالم فقيه أصولى ولى متصرف تصوفا سنيا ، دخل بجاية فى مـــدة اجتيازه الى المشرق .

ونجد الغبرينى وهو يترجم له يقص قصته مع البجائى الذى أضافه . وفحواها : أنه لم يؤد الا الصلوات المفروضة وسننها المؤكدة ، ولما استقل ذلك منه ألهم الله شعيبا شعور المضيف نحوه ، فأقام عنده ثلاثين يوما لا يأكل ولا يشرب ، **كرامة طبعا** ، ولما هم بالانصراف قال لمضيفه :

ما أقمت عندك هذه المدة الا لئلا تزدرى بأولياء الله اذا رأيتهم يؤدون الفرائض ويقتصرون عليها . وأى فضل اعظم من اداء الفرائض اذا فعلها الفاعل على حقيقتها وارتكب جميل طريقتها ؟!!

وهنا ينبرى الغبرينى مدافعا عن شعيب ومبديا رأيه فى سلوكه بقوله:

وهذا الرجل [شعيب] انما كان من أهل العرفان . وانما كانت عبادته فى فكرته ولكن العامة ما يرون الفضل الا لمن يكثر الركوع والسجود والصيام، وان كان جاهلا ، وذلك لعدم تمييزهم وقلة علمهم .

ثم يقص قصة مماثلة ويعلق عليها تعليقا مماثلا فيقول :

ان العامة لا يدركون الا الأحوال الظاهرة ولا علم لهم بالأسرار .

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

أعاد الله علينا بركات أولياء الله بفضله .

***

ومن هذين التعليقين للغبرينى نفهم أنه كان يرى أن للأولياء عمقهم الخاص بهم . وعالمهم المغلق عليهم ، ولا حق لنا فى محاسبتهم بما نحاسب به أنفسنا ولا فى قياسهم علينا .

اما أنا فأرى أن الانحياز بهم الى عالم الأسرار التى لايصح لنا ولوجها انحياز خاطىء وفى غير محله ؛ فالكل فى شرع الاله سواء والله أعلم .

ص ١٧٣ ـ ١٧٦

- ١٥ -

أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن فتوح النفرى
ت ٦٤٢ هـ

أديب عالم بالنحو واللغة والفقــــه والمنطق له شعر بارع وأدب غض يانع ومما ألفه : تقييد على كتاب المفصل ، واختصار [حلية الأوليــاء] لأبى نعيم .

أصله من شاطبة ثم جاء الى بجاية ، وقبره بحومة رابطــــة المتمنى خارجها .

ص ١٧٦ ـ ١٧٧

- ١٦ -

أبو عبد الله الشريف

عالم عامل فقيه متكلم متعبد زاهد بجائى .

ص ١٧٧ ـ ١٧٨

- ١٧ -

أبو الحسن علي الشهير بابن الزيات

عالم فقيه متعبد أندلسى استوطن بجاية ثم استوطن تونس وبها توفى .
كانت تقرأ عليه الكتب المذهبية مثل :
التهذيب : للبراذعى المتوفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى .
التلقين : للقاضى عبد الوهاب المالكى .
الجلاب : لأبى القاسم عبيد الله بن الجلاب والاسم الحقيقى للكتاب التفريع .
الرسالة : لأبى زيد القيروانى المتوفى سنة ٤٠١ هـ .

ص ١٧٨

- ١٨ -

أبو تمام الواعظ الوهرانى

عالم عابد ولى . سكن بجاية واشتغل فيها بعلم التذكير .

ص ١٧٩

- ١٩ -

أبو علي عبد المحسن الوجهانى الصواف

عالم عابد فقيه بجائى ارتحـــل الى المشرق للحج فظهر أمره بمصر ظهورا كليا .

ص ١٨٠

- ٢٠ -

أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن قاسم الانصارى
[٥٦٠ ـ ٦٥٧ هـ]

عرف بابن السراج الاشبيلى ، وهو عالم فقيه راوية متعبـد من أهل اشبيلية . استوطن بجاية ومات بها .

ص ١٨١

- ٢١ -

ابو اسحق ابراهيم بن ميمون بن بهلول الزواوى
ت ٦٨٦ هـ

أديب فقيه ولى . له نظم حسن وكلام فى النثر مستحسن رحـــل الى المشرق وتوفى ببجاية .

ص ١٨٢

- ٢٢ -

أبو تميم ميمون بن جبارة بن خلفون البردوى
ت ٥٨٤ هـ

فقيه رحل الى المشرق وعاد الى مراكش فعينه خليفتها قاضيا لبلنسية سنة ٥٦٨ هـ ثم صرف عن ذلك منقولا الى قضاء بجاية ، واستقدمالىمراكش من بجاية ليتولى مرة ثانيــــة قضاء بلنسية فتوفىفى طريقه اليها بتلمسان سنة ٥٨٤ هـ .

ولست أرى له ما يجعل الغبرينى يكسر به شرط كتابه : فهو من أهل القرن السادس الهجرى لا السابع .

ص ١٨٣

- ٢٣ -

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهرى المشتهر بالأصولى

عالم فقيه أصولى متكلم موسيقى . من أهل بجاية . وقد ولى قضاءها ثلاث مرات .

وهو صاحب الفضل فى انقاذ أبى الوليد بن رشد من فتــك المنصور الموحدى به ، فانه لما كتب فى مؤلفه [الحيوان] :

[ورأيت الزرافة عند ملك البربر] .

وهم المنصور بقتله قال : انما كتب : [ورأيت الزرافة عند ملك البربن] وانما جاء فيه زيادة ونقص ٠

ودفاع آخر دافع به عن صديقه وصفيه ابن رشد ، وهو انه كان قد جرى بمجلس أمير المؤمنين منع العمل بالشهادة على الخط فاستند الفهرى على ذلك وحاج أمير المؤمنين قائلا :

منعتم الشهادة على الخط فى الدرهم والدينار ، وتجحدونها فى قتل المسلم ؟!!

والدفاعان قويان وهما يدلان على حسن التصرف ورباطة الجأش ٠
ص ١٨٤

- ٢٤ -

أبو العباس محسن بن أبى بكر بن شعبان

عالم فقيه خطاط من أهل بجاية ٠

ص ١٨٧

- ٢٥ -

أبو محمد عبد الكريم بن عبد الملك بن عبد الله بن طيب الأزدى

عرف بابن يبكى القلعى ، وهو عالم فقيه من قلعة بنى حماد ، يقول الغبرينى عنه : صاحب الرابطة المعروفة برابطة ابن يبكى بداخل باب ميسون من أعلى سند بجاية وبها قبره رحمه الله ٠

ص ١٨٨

- ٢٦ -

أبو عبد الله محمد بن صمغان القلعى

فقيه قاض محدث من قلعة بنى حماد،لكنه رحل الى بجاية واستوطنها ٠
ص ١٨٩

- ٢٧ -

أبو عبد الله بن أمة الله

عالم فقيه من أهل العلم بأصول الدين،كان له من المعرفة به والاشتهار فيه ما أربى على المتقدمين ٠

ص ١٩٠

- ٢٨ -

أبو جعفر بن أمية

أديب فقيه ذو خط جميل ، له شعر كثير في النسيب والحكمة والتصوف ومن شعره في التحقيق هذان البيتان :

ظهرت فلم تعرف لشدة غفـلة
عرضت فأنكرت النفوس ظهورها
ولقد أطالوا الخبط فيها عشوة
وهي التي أشـــهدتهم نورها

ص ١٩٠ ـ ١٩١

- ٢٩ -

أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي القلعي

عالم فقيه من أهل قلعة بني حماد قرأ ببلده وقرأ ببجاية ولقي بها جلة منهم الشيخ أبو مدين شعيب رضي الله عنه ٠

ص ١٩٢

- ٣٠ -

أبو محمد عبد الحق الأزدي الاشبيلي
ت ٦٢٨ هـ

محدث أصولي نحوي مؤرخ أديب ٠ من مؤلفاته :

١ ـ الاعلام بفوائد الأحكام ٠
٢ ـ شرح مقصورة ابن دريد ٠
٣ ـ النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة بافريقية وبجاية ٠

ص ١٩٣

- ٣١ -

أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد السلام . عرف بابن الطير

فقيه أصولي . ولى قضاء بجاية محمولا عليه وهو لا يريد .

ص ١٩٤

- ٣٢ -

أبو زيد عبد الرحمن بن على بن محمد القرشى الصقلى المعروف بابن الحجرى

فقيه نحوى لغوى ، اصله من صقلية كما تدل نسبته . لكن أخذ العلم عنه ببجاية خلق كثير .

ص ١٩٥

- ٣٣ -

أبو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الاغماتى

لغوى نحوى فقيه منطقى مؤرخ من أهل اغمات بالمغرب الأقصى استوطن بجاية وولى القضاء ببعض جهاتها وكان مشتغلا بالتدريس بها وقرأ عليه الشيخ الأجل أبو اسحاق بن عمران ايام ولايته السلطانية ببجاية .

ص ١٩٦

- ٣٤ -

أبو عثمان سعيد بن عبد الله المعروف بالجمل

فقيه متصوف ، جلس للاقراء ببجاية . وكان نافذ النظر فى أصول الدين وهو أعظم علومه .

ص ١٩٨

- ٣٥ -

أبو على عمر بن مالك المرساوى

كان أعلم الناس بعلم الكلام وبأصول الدين ، يقول الغبرينى : « وكل من كان له مشاركة فى أصول الدين ببلدنا فما كان أخذه الا عن طريق أبى على المرساوى » .

ص ١٩٨

- ٣٦ -

أبو الحسن على بن عمران بن موسى الملياني . عرف بابن أساطير .

يقول الغبريني عنه : كان له علم بالفقه وأصول الدين والتصوف وعلوم الحكمة قرأ عليه بعض خواص الصحابه كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا وكان من عدول بجاية وخيارها .

ص ١٩٩

- ٣٧ -

أبو على منصور بن احمد بن عبد الحق المشدالى
ت ٧٣١ هـ

له علم بالفقه واصول الفقه واصول الدين . وله مشاركة فى علم المنطق وعلم العربية .

ص ٢٠٠

- ٣٨ -

أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن الخطيب

فقيه نحوى منطقى أصولى حكيم متصوف أديب .
أورد له الغبرينى شعرا حسنا فى التصوف .

ص ٢٠١ ـ ٢٠٢

- ٣٩ -

أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر

له تحصيل فى الفقه جيـــد ، وله علم بأصول الدين وأصول الفقه ، ومعرفة بالحكمة وبراعة فى علم المنطق .

قرأ ببجاية ثم رحل الى المشرق وتوفى بتونس حوالى سنة ٦٨٠ هـ
ص ٢٠٤ ـ ٢٠٨

- ٤٠ -

أبو زيد عبد الرحمن بن على بن أبى دلال

أديب شاعر خطيب له مشاركة فى الفنون وفى عقلى العلوم ونقليهـا رجزه أحسن توجيز ، ومن نظمه فى بعض أصحابه قصيدته السينية اللزومية وهى قصيدة سهلة لعدم تكلفها وقلة تعسفها .

ص ٢٠٥

- ٤١ -

أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن سبعين المرسى

له مشاركة فى معقول العلوم ومنقولها ، وله فصاحة وبلاغة .

كتبه كثيرة فى أيدى الناس ، لكن له فيها ألغـازا واشارات وتسميات مخصوصات هى نوع من الرموز ، وفى المقابل له تسميات ظاهرة هى كالأسامى المعهودة ، وله شعر فى التحقيق فى مراقى الطريق .

وكتابته مستحسنة فى طريق الأدباء . توفى حوالى ٦٦٩ هـ .

ص ٢٠٩

- ٤٢ -

أبو الحسن على النميرى الششترى
ت ٦٦٨ هـ

أديب صوفى حكيم فقيه ولى . شعره فى غاية الانطباع والمـــلاحة وتواشيحه وأزجاله فى غاية الحسن .

أندلسى الأصل . عاش فى بجاية ومات بمصر ، وقبره فى ثغر دمياط على البحر الأبيض المتوسط .

ص ٢١٠ ـ ٢١٢

- ٤٣ -

أبو العباس احمد بن أبى القاسم عبد الرحمن بن عثمان التميمى الخطيب

غلب عليه الفقه ، وهو أول بيت بنى الخطيب ببجـاية ، ولى قضاءها

من مراكش ، وقد استمرت مدته وطالت ولايته ، وكان أكثر الناس حظوة عند بني عبد المؤمن .

ص ٢١٣

- ٤٤ -

ابو محمد عبد الله بن احمد بن أبي القاسم عبد الرحمن بن عثمان التميمي ت ٧٢٠ هـ

أحد قضاة العدل ، وولاة الدين والفضل ، ولي قضاء سبتة بالعدوة وبلنسية بالاندلس ومات بمدينة تونس ، فلعله مر ببجاية وهو في طريقه الى افريقية والا لما ترجم له الغبريني هنا .

ص ٢١٤

- ٤٥ -

ابو محمد عبد الله بن حجاج بن يوسف الجزائري

من الفقهاء الذين تولوا القضاء ببجاية .

ص ٢١٥

- ٤٦ -

أبو محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الحسني

فقيه ، وهو الذي ترافع في حضرة أمير المؤمنين بمراكش عن الفقيه أبي زكرياء الزواوي لما خاض في امر ابن حزم حتى قال الخليفة : يترك هذا الرجل [الزواوي] على حسن اختياره . أي على حسن اختياره من يدافع عنه .

ص ٢١٦

- ٤٧ -

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأريسي

فقيه مفت يجيد الخط المشرقي .

ص ٢١٧

- ٤٨ -

أبو علي عمر بن عزون السلمي

رحل الى بلاد المشرق فقرأ ومهر . وعاد الى بجاية فظهر واشتهر وحظى بها فكان المشاور والمفتى .

ص ٢١٨

- ٤٩ -

ابو الحسن علي بن عبد الله الأنصاري البوني

ناب عن القضاة في بجاية نيابة مطلقة تنزلت منزلة الأصالة ، وما ذلك الا لنهوضه في الأحكام ومعرفته بوجوه الحلال والحرام .

ص ٢١٨

- ٥٠ -

أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسين الخشني البجائي

عالم . فقيه . مشاور .

ص ٢١٩

- ٥١ -

أبو زكرياء يحيى بن علي بن حسن بن حبوس المهداني

كان أحد الفقهاء المشاورين ، والجلة المفتين ببجاية .

ص ٢٢٠

- ٥٢ -

أبو اسحاق بن العرافة

ولى صلاة الفريضة والخطابة بالجامع الأعظم ببجاية ، وكان له به مجلس علم حافل يدرس فيه علوم الرواية وعلوم الدراية .

ص ٢٢٢

- ٥٣ -

أبو سعيد بن تونارت الدكالى

لم تكن له مشاركة فيما سوى الفقه وقد درسه ببجاية ·

ص ٢٢٢

- ٥٤ -

أبو زيد عبد الرحيم بن عمر اليزناتى

رحل الى المشرق فلقى الأفاضل وجد واجتهد ، ولما وصل الى بجاية اشتهر بها وعكف على التدريس فيها ، وكان محصلا لمذهب مالك ، ولأصول الفقه على طريقة الأقدمين ، ومن أهل الاجتهاد ·

ص ٢٢٣

- ٥٥ -

أبو زكرياء اللقنتى الأندلسى

فقيه أندلسى رحل الى بجاية واستوطنها وأقرأ بها ، وأسمع ، وكان جلوسه بالجامع الأعظم ، ولما رحل الى حاضرة تونس استدعاه ملكهما وسأله عن حاله وعن طلبته ·

ص ٢٢٤

- ٥٦ -

أبو سليمان داود بن مطهر الوجهانى

رحل الى المشرق فحج وقرأ ودرس ورأس واجتهد ، كان له علم بالفقه وبأصوله وأصول الدين ومشاركة فى العربية ·

ص ٢٢٥

- ٥٧ -

أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن السطاح الجزائرى
ت ٦٢٩ هـ

نحو لغوى فقيه · أصله من الجزائر · رحل الى أشبيلية وقرأ بها · وهو أول من ادخل كتاب [الأنوار فى الجمع بين المنتقى والاستذكار] الى العدوة ، نسخة بخط يده ·

استوطن بجاية وأقرأ بها وناب عن قضاتها فى الأنكحة ·

ص ٢٢٥

- ٥٨ -

أبو يوسف يعقوب بن يوسف الزواوى المنجلاتى
ت ٦٩٠ هـ

متعبد مبارك له معرفة بالفقه واصوله ومشاركة فى علم العقائد ·

قرأ ببجاية ورحل الى حاضرة افريقية ثم رجع الى بجاية وأقرأ بها وعظم أمره واشتهر حتى صار مجلسه بها من المجالس المعتبرة ·

توفى بتيكلات وهى مكان معروف ببلاد القبائل ودفن حيث مات ·

ص ٢٢٦

- ٥٩ -

أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبى بكر المنصور القلعى

فقيه من قلعة بنى حماد . كان له علم بالحساب سبق فيه الأوائل والأواخر لو لقيه الحصار وابن وهيب ما أمكنهم الا الاستماع منه والاخذ عنه ، وكانت له طريق فى الفرائض ملخصة فى نهاية القرب ، ولم يكن ببجاية فى وقته أحد يريد قراءة هذا العلم الا قرأه عليه ، وكان يقصد من البلاد لقراءة هذا العلم عليه ·

توفى ببجاية فى عشر الستين وستمائة ·

ص ٢٢٧

- ٦٠ -

ابو على عمر بن أحمد العمرى البجائى

فقيه أصولى من أهل بجاية ، رحل الى المشرق فلقى الأفاضل وحج ، ولما رجع الى بجاية كان أحد عدولها والمتصدرين للتدريس بها ·

ص ٢٢٨

- ٦١ -

أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحية الكلبي
ت ٦٣٣ هـ

أديب نحوي مؤرخ محدث فقيه ، استوطن بجاية وروى بها وأسمع كان من أحفظ أهل زمانه للغة حتى صار حوشيها عنده مستعملا غالبا عليه، ولا يرضى الغبريني عن ذلك ، وهو يفسره بحب الظهور والاشتهار · رحل الى المشرق في عهد الأيوبيين فرفعوا شأنه وقربوا مكانه ، وحضروا له مجلسا أقروا له فيه بالتقدم ·

كتب الى الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب قصيدة رائعة منها :

ما لي أسائل برق بارق عنكم
من بعد ما بعدت دياري عنكم
وبمنحنى الأضلاع بل وادي الغضا
من مهجتي يا راحلين نزلتم
فمحلكم قلبي وأنتم بالحشا
لا بالعقيق ولا برامة أنتم

ولما رد عليه ممدوحه بنثر وشعر يثني عليه وعلى شعره فيهما كتب له قصيدة أخرى أروع وأوقع ·

ص ٢٢٨ ـ ٢٣٨

- ٦٢ -

أبو الربيع سليمان الأندلسي المعروف بكثير

شاعر ناقد فقيه له علم بالحديث ومعرفة برجاله ، حافظ لأسانيده محصل لمعانيه ، من أهل الضبط والحفظ · قال الغبريني عنه :

وأما الأدب فشأوه فيه لا يدرك ، سبق فيه أهل الزمان وأربى ، ولمثله في الفصاحة والبلاغة تحل الحبى · وقال أبو الحسن الحرالي :

بلغ كثير في رتبة البلدان أن يكون كأوائل العرب يحتج بشعره في ذلك

لما كان انتهى اليه من الفصاحة والبلاغة حتى صارت له طبيعة ، وكان سريع البديهة ؛ يكتب عنه ولا يقف ، ويورد أحسن ايراد .

له قصيدة فى نحو خمسمائة بيت يصف فيها حاله ويعاتب وقته هذا مطلعها :

الحمـــد لله ليس لى بخت   ولا ثيـاب يضمها تخت

وكان لسان نقد على المؤلفين والمصنفين والمتكلمين .

ومن جملة نقوده قوله عن كتاب الاحياء لأبى حامد الغزالى :

ومتى ماتت العلوم حتى تحيا ؟!! علوم الدين ما زالت حية ولا تزال .
٢٣٩ ـ ٢٤١

- ٦٣ -

ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الوغليسى

اديب فقيه عالم بالكتابتين الأدبية والشرعية ، كان المعتمد عليـه فى وقته فى المخاطبات السلطانية انشاء وجوابا ، كما كان عليه اعتماد القضاة فى التسجيلات ، واليه كان يهرع اهل البلد فيما يحتاجون اليه من الوثائق المحكمات والأمور المستغربات .

ولى الخطابة بجامع القصبة المحروسة فى بجاية ، وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط .

ص ٢٤١

- ٦٤ -

ابو بكر محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سليمان بن محمد الزهرى ويعرف بابن محرز البلنسى
ت ٦٥٥ هـ

اديب لغوى مؤرخ فقيه محدث راوية ، لقى كثيرا من الفضـــلاء فى

الأندلس والمشرق والمغرب ، وأجاز له كثير منهم ، وقد ارتحل الى بجاية بعد الأربعين وستمائة واستوطنها الى أن مات بها ٠

رأى له الغبريني نظما ونثرا لا بأس بهما ٠

ص ٢٤١ ـ ٢٤٤

- ٦٥ -

أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الأنصاري البلنسي ت ٦٥٤ هـ

فقيه اندلسي من بلنسية ٠ استوطن بجاية واقرأ بها واسمع أخذ عنه واستفيد منه ٠ له علم بالقراءات وحظ من العربية ٠ محكم الرواية متقن الدراية ٠

ص ٢٤٥

- ٦٦ -

أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمرى الاشبيلي المتوفى سنة ٦٥٩ هـ

فقيه لغوى نحوى مؤرخ راوية حافظ للحديث عارف برجاله ، وهو في معرفة القراءات امام ، ولي صلاة الفريضة والخطبة بالجامع الأعظم ببجاية ولـــما اشتهر حاله وعلمه . ونقل الناقلون ذكاءه وفهمه ، نمى خبره الى المستنصر بالله بالحاضرة الافريقية ، فاستدعاه وقربه ، وقد ظل هناك حتى مات ٠

قال الغبريني عنه : كان يكتب جيدا وينظم نظما حسنا ، ثم أورد له ابياتا جيدة على قافية الغين ٠

ص ٢٤٦ ـ ٢٥٩

- ٦٧ -

أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي ت ٦٥٨ هـ

هذا الشيخ أبو المطرف قد تحمس الغبريني له تحمسا عظيما ، وكتب

ترجمته وهو فى قمة الانفعال به ، ولعله قد أحس بذلك وظن أننا أو غيرنا يمكن أن نتهمه بالاسراف أو بالخروج عن الموضوعية فى الكتابة العلمية ٠

فدافع عن نفسه بأمرين :

أولهما : ايراد نصين نثريين من انشائه واعتذر عن ايراد ثالث بخشية الاطالة ٠

وثانيهما : انه فى نهاية الترجمة له قد وثقها باسنـــادها الى شيوخ ثلاثة وهو لا يفعل ذلك مع كل أحد ٠

وهذه مقتطفات مما جاء فى هذه الترجمة قال :

الشيخ الفقيه المجيد المجتهد العالم الجليل الفاضل المتقن المتفنن ٠

علم العلماء وتاج الأدباء ابن عميرة المخزومى من أهل جزيرة شقر سكن بلنسية مدة وكتب عن ولاتها ، فاق الناس بلاغة وأربى على عن قبله وتهادته الدول ، وولى القضاء بأريولة وشاطبة من الأندلس وســـلا ومكناسة من العدوة ، وقسنطينة وقابس من بلاد افريقية وغيرها ٠

استوطن بجاية مدة طويلة وأقرأ بها ودرس ، له علم بالفقه ، وأصوله وحديث حسن فى معقوله ومنقوله ، وله أدب هو فيه فريد دهره ، وســابق أهل عصره . والناس يتداولون كتبه ويستحسنونه ويؤثرونه على كتب غيره، وبالواجب - علم الله - أن يكون كذلك لسلوكه حسن منهجه الذى هو فيـــه أول سالك ٠

والذى أوجب تقدم الفقيه أبى المطرف فى كتابته انما هو أن الرجل من أهل بلنسية ومن أهـــل العلم فيها . فكتابته علمية أدبية ، وكتـــابة غيره مقتصرة على نوع الأدب ، وهذا المعنى هو الذى تميز به عمن عـــداه وسبق من سواه ٠

وكان الطلبة مدة كونه ببجاية يقرأون عليه تنقيحات السهروردى وهى من مغلقات أصول الفقه عند من لم يمارس علم الأصول ، ولا يتعرض لاقرائها الا من له ذهن ثاقب ٠

رحل الى حاضرة افريقية واتصل بالخليفة المستنصر بالله فاستقضاه تابس ثم استدعاه وجعله من خواص الحاضرين بمجلس حضرته ومن فقهاء دولته • وقد توفى بتونس •

ص ٢٥٠ - ٢٥٣

- ٦٨ -

ابو عثمان سعيد بن حكم بن عمر بن حكم بن عبد الغنى القرشى
ت ٦٨٠ هـ

فقيه جمع بين الرواية والدراية • له علم بالعربية والأدب ، وله نظم ونثر وكتابة مستحسنة ، ولا عجب ؛ فقد كان فصيح القلم واللسان • دخل بجاية وبقى بها مدة ثم انتقل الى تونس ومنها انتقل الى ثغر ميورقة التى توفى بها •

ص ٢٥٤ - ٢٥٥

- ٦٩ -

ابو على الحسن بن موسى بن معمر

أديب لسن فصيح فقيه مليح الحكاية بارع الخط حسن النظم والنثر •

كان صاحب العلامة المستنصرية ، وكان له عند المستنصر حظ ؛ فقد كان يستطرف حديثه ويعجب به ، وكان يوم دخوله عليه وجلوسه عنده يطول الأمر على الواقفين بين يديه فلا يكون عليهم أشد من ذلك اليوم •

ولى قضاء بجاية فحسنت فيه سيرته واستحسنت طريقته ، وكان محبا للناس مشكورا عندهم •

لما غضب عليه المستنصر احتال حتى أوصله هذين البيتين له :

وا حسرتى فى مقـــام بين أظهركـــم
قوم رجاؤهم باليـــأس مفضـــوح
صـــدوا وسدوا عن المضطر بابهـم
وما دروا أن باب الله مفتـــوح

قالوا : فذرفت عينا أمير المؤمنين رضى الله عنه وظهر له وجه البر والرضى وغفر له ·

يقول الغبريني ناقدا : والبيت الثانى مليح القصد ، وأما الأول فظاهر فيه وجه النقد ·

ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

- ٧٠ -

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أحمد بن أبى بكر القضاعي الشهير بابن الأبار

المتوفى سنة ٦٥٨ هـ

اديب لغوى نحوى مؤرخ فقيه محدث نشأ ببلنسية وتخرج على أيدى علمائها ، وصحب أبا الربيع بن سالم بضعا وعشرين سنة ، وهو الذى ندبه الى وضع كتاب التكملة لصلة أبى القاسم بن بشكوال ·

كتب اليه كثير من علماء المسلمين فى المشرق والمغرب ، ولا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة فى الاسلام الا وله فيه رواية اما بعموم واما بخصوص·

رحل الى العدوة واستوطن بجاية ودرس بها وأقرأ وروى وأسمع وصنف وألف ، وهو ممن لا ينكر فضله ولا يجهل نبله ، له تآليف حسنة ونزعات فى علم الأدب بارعة ·

استدعاه أمير المؤمنين المستنصر الىحضرته فلما مثل بين يديه أنشده :

بشراى باشرت الهدى والنورا
فى قصدى المستنصر المنصورا
واذا أمير المؤمنين لقيته
لم ألق الا نصرة وسرورا

فحظى عنده وبلغ عنده مأموله وقصده ·

يقول الغبريني : لو لم يكن له من الشعر الا القصيدة التى رفعها لمقام

الأمير أبى زكرياء رحمه الله يستنجــده ويستصرخه لنصرة الأندلس والتى مطلعهـــا :

أدرك بخيلك خيــــل الله أندلســـــا
ان السبيــــل الى منجاتهـــا درســـا

لكان فيها كفاية ٠

ولو لم يكن له الا الكتاب المسمى [اللجين فى مراثى الحسين] لكفـاه فى ارتفاع درجته وسمو رتبته ، فكيف لا ، وله تصانيف وجملة تأليف من شعره رحمه الله ورضى عنه :

ســـاق من روض الأمـانى أرجــــه
ولأمـــر مـا شجـــالى مدرجــــه
خيلت لى أنهـــا تعـــدنى
وخيـالات الفتى تستـــدرجه
فلذا أكـــذب شىء فجـرها
ولقـــد غر الحجى منبلجـــه
يا شقيق النفس أوصيـــك
وان شق فى الاخلاص ما تنتهجه
لا تبت فى كمـــد من كبـــد
رب ضيق عاد رحبـــا مخرجه
وبلطف الله أصـــبح واثقــــا
كل كـــرب فعليــــه فرجــــه

توفى رحمه الله بتونس فى العشرين من محرم عام ٦٥٨ هـ ٠

ص ٢٥٧ ـ ٢٦١

- ٧١ -

ابو محمد عبد الله بن علوان

كاتب أديب منشىء فقيه ، جمع بين الكتابتين الأدبية والشرعية ، وكان شيخ كتاب الكتابة الشرعية فى وقته ، له نظم فى الفرائض سلك فيه طريقة الحجازيين والنجديين ، وهو النائب فى صلاة الفريضة بالجامع الأعظم ، وقد أورد له الغبرينى شعرا جزلا فخما سما لفظا ومعنى ٠

ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦

- ٧٢ -

أبو العباس احمد بن محمد بن عبد الله المعافرى

فقيه مقرىء نحوى ، قرأ على أبيه بالقلعة الحمادية ، ثم ارتحل الى بجاية رجل ن للتدريس بجامعها الأعظم ، وكل من قرأ عليه وصفه باتقان الرواية وجودة الدراية .

كان لا يتسامح فى اجازة بوجه ، ولا يمكن منها الا بعد التحصيل الطويل ، ومن ظفر من الطلبة باجازته فقد ظفر بالغاية القصوى ، ووصل الى المرتبة العليا .

ص ٢٦٥

***

- ٧٣ -

أبو الحسن على بن مؤمن بن محمد بن على الحضرمى عرف بابن عصفور

نحوى لغوى مؤرخ مفسر منطقى شهير الذكر رفيع القدر ، من أهل اشبيلية قرأ بها على أبى على الشلوبين ، فحصل له ما لم يحصل لغيره .

يقول الغبرينى : وكل من قرأ على أبى على الشلوبين ببلده نجب . وأجلهم عندى رجلان : أبو الحسن هذا ، والأستاذ أبو الحسن بن الربيع وأجل الأستاذين أبو الحسن بن عصفور ، وما أعتقد فى الأسانيد من المتأخرين أجل منه ، فقد جمع رحمه الله بين الحفظ والاتقان والتصور وفصاحة اللسان .

تآليفه فى العربية من أحسن التآليف .

له [المقرب] وهو كتاب بارع ، وله على الايضاح ، وله شرح أبيات الايضاح لم يسبقه أحد بمثله ، وكلامه فى جميع تآليفه سهل منسبك ، والذى قيد عنه أصحابه أكثر من تآليفه .

شرح جزءا من كتاب الله العزيز ، وسلك فيه مسلكا لم يسبق اليه ٠

وقال : لو ساعدني الوقت وأمدني الله بالمعونة منه ، وأكمل هذا الشرح على هذا المنزع لكان ذخيرة العالم ٠

يقول الغبريني : هو ممن له القدرة على هذا ، وهو أولى الناس بشرح كتاب الله تعالى ٠

ارتحل الى العدوة . واستوطن بجاية ، وكان بها أستاذا للأمير أبي يحيى برد الله ضريحه ، وارتحل الى حضرة تونس فحظى بها عند المستنصر بالله ، وكان أحد خواص مجلسه ٠

ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

***

- ٧٤ -

أبو محمد عبد الحق بن يوسف بن حمامة الغبريني

نحوى لغوى فقيه ، كتابته تدل على بلاغته وبراعته وطلاقة قلمـــه وفصاحتـــه ، ولى القضاء ببعض أكوار بجاية ، وكان معروفا بالعفـــاف وبالاقتصار على الكفاف ٠

ص ٢٦٨

- ٧٥ -

أبو الحكم مروان بن عمار بن يحيى

أديب لغوى نحوى فقيه من أهل بجاية ، دخل الأندلس وولى قضاء المرية ٠

ص ٢٦٩

- ٧٦ -

أبو محمد عبد اللهبن عبد الرحمن بن عبد الله بن موسى بن سليمان بن على ابن عبد الملك بن يحيى بن عبد الملك بن الحسن بن محمد بن عميرة بن طريف ابن اشكورته الأزدى

اديب خطيب فقيه محدث راوية من أهل مرسية ومن بيت عريق فى العلم؛ فأبوه وجده مذكوران فى التكملة ٠

سكن بجاية وروى عنه بها ، وولى صلاة الفريضة بجامعها الأعظم .
كان لا يعد خطبه بل يرتجلها ، وقد اجاز له كثيرون .

قدم الى حاضرة افريقية بعد الأربعين وستمائة ، وبعـد ذلك استأذن فى الحج فأذن له ، وحج سنة ٦٥٦ هـ ثم عاد ، ولم يزل مأخوذا عنه الى أن توفى بتونس ظهر يوم الأحد السادس والعشرين لجمادى الأخيرة عام أحد وستين وستمائة هجرية .

ص ٢٧٠ ـ ٢٧١

- ٧٧ -

ابو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمى القرطبى
ت ٦٣٦ هـ

اديب كاتب شاعر فقيه شرح مقامات الحريرى وكتب على خطبتها نحوا من خمسة عشر كراسا بالقالب الكبير .

كان ببجاية فى مدة السيد بن عمران من بنى عبد المؤمن .

وقد خمس [المنفرجة] لابن النحوى على الوجه الآتى :

لا بد لضيق من فرج ـ والصبر مطية كل شج ـ وبدعوة احمد فابتهج

اشتـــدى أزمة تنفرجى　　　قد آذن ليلـــك بالبلج
يا نفسى رويدك لا حـــرج　　　وثقى بالله عسى فـــرج
وكـــذا ما ضـــاق له فـرج
وظلام الليل له سرج　　　حتى يغشـــاه أبو السرج

وبعد أن أورد الغبرينى التخميس كاملا علق عليه بقوله :

وهذا التخميس قد ظهر من أمره ومن العناية بمنشئـــه ما دل على خلوص نيته وصلاح طويته وأنا أرويه مع وصيته عن الشيخين :

أبى عبد الله بن رحيمة البانى ، وأبى العباس بن خضر الصدفى رحمهما الله ، ثم ذكر الوصية .

ص ٢٧١ ـ ٢٧٩

- ٧٨ -

ابو علي حسن بن الفكون القسنطيني

الأديب البارع والفقيه الكاتب ابو علي حسن بن الفكون من الأدباء الذين نستطرف أخبارهم وتروق أشعارهم غزير النظم والنثر . وكانهما انوار الزهر ·

رحل الى مراكش وامتدح خليفة بني عبد المؤمن ، ومن وحى هـذه الرحلة قصيدته اليائية المشهورة ·

كان الأدب له من باب الزينة والكمال ، فلم يكن يحترف به لاقامة أود أو اصلاح حال ·

أصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها ومن كريم أرومتها ·
توشيحه جيدة وشعره ممتاز ·

وقد اورد له الغبريني ثلاثة نماذج من ثلاث قصائد ، ونجتزيء هنـا بهذه الأبيات من النموذج الثاني وهي في وصف قصر الربيع الموحدي ببجاية لما كان في زيارته ضيفا على صاحبه مع جماعة قال :

عشونا الى نار الربيـع وانما
عشونا الى نار الندى والمحلق
ركبنا بواديه جيـاد زوارق
نزلنا اليها عن ضوامر سبق
وخضنا حشاه والأصيل كأنه
بصفحته تبر جرى فوق زئبق

ص ٢٨٠ - ٢٨٦

- ٧٩ -

ابو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الادريسي المعروف بالجزائري

شيخ كتبة الديوان ببجاية ، له شعر كثير في كل فن ، وشعره حسن سهل يكثر فيه التجنيس الذي يأتي عفوا من غير تكلف ·

ان اطال أعرب ، وان اقتصد أعجب ، مليح التواشيح ، أورد له الغبريني خمسين بيتا موزعة على الابتهال الى الله تعالى وعلى المدح والغزل قال :

يا من على جـــوده المعهود أتكل
ويا ملاذى اذا ضاقت بى الحيـــل
غرقت فى بحر آثامى فخذ بيدى
وامنن بعفو فانى خائف وجـــل

ص ٢٨٧ ـ ٢٩٤

ـ ٨٠ ـ

أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام الدلسى

غلب عليه الأدب شعرا ونثرا ، فقد أجادهما وبرع فيهما ، كما برع فى الطب والفقه والتاريخ ، « وما كان يجب أن ينسب الا أنه من الفقهاء لا من الأدباء » ٠

أصله من تدلس وهى دلس التى تبعد عن مدينة الجزائر بنيف ومائة كيلو متر ٠

ولما ولى القضاء ببعض كور بجاية سكنها وصار من أدبائها وعلمائها ٠ وقد أورد الغبرينى كثيرا من شعره ٠

ص ٢٩٤ ـ ٣٠٠

ـ ٨١ ـ

أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى اللبلى الاندلسى

لغوى نحوى مؤرخ فقيه ، تعلم بالأندلس على مشايخ كثيرين منهـــم ابو على الشلوبين ، ثم ارتحل الى العدوة فسكن بجاية واقرأ بها ، ولما حج لم يستفد من المشرق علما لأنه ما حج الا بعد الأستاذية ٠

وبعد الحج اتخذ تونس وطنا له عاش فيه ومات به ٠

من كتبه :

١ ـ على الجمل ٠
٢ ـ شرح الفصيح لثعلب ٠
٣ ـ الاعلام بحدود قواعد الكلام ٠

ص ٣٠٠ ـ ٣٠١

- ٨٢ -

أبو العباس أحمد بن محمد القرشي الغرناطي

فقيه حافظ مؤرخ مدرس مفسر محدث راوية يقول الغبريني :

« سمعت عنه أنه يحفظ تاريخ الطبري ، وذكر لي بعض أصحابنا أنه يحفظ تفسير الثعلبي ، واذا حفظ هذين الكتابين استتبع حفظهما كثيرا من غيرهما ٠

سمعه وهو يدرس في الجامع الاعظم ببجاية فدل كلامه على حفظه واتقـانه ٠

له تأليف وتصانيف منها على كتاب الله تعالى طالعت بعضها » ٠

وكان له اعتناء بأهل زمانه ٠ شرع في تأليف كتاب يذكر فيه المصنفين من أهل عصره في المغرب والمشرق ، وراسل من رأى أن يترجم لهم ليخبروه بما صنفوه وهذا هو السبب في أنه كان أعلم الناس بالكتب المصنفة وأحفظهم لأسمائها ٠

ص ٣٠١ ـ ٣٠٢

- ٨٣ -

أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الجنان

كاتب بارع وشاعر رائع وفقيه جليـــل وخطيب كبير من أهل الرواية والدراية وجودة الخط وحسن الضبط ، نثره ونظمه كله حسن ، وأي نوع انتقلت اليه من فرعي أدبه قلت : انه أحسن ، نظمه ، غزير وأدبه كثير ٠

من داليته المشهورة هذه الأبيات :

يا حـادي الركب قف بالله يا حـادي
وارحـــم صبـــابة ذي نأي وابعـــاد
مـا ينبغي عنـك الا أن تصـــيخ له
سمعا ليسأل عمن حـل بالوادي

فهل لديك عن الأحبـــاب من خبر
وهل نزلت بذاك الربـع والنـــادى ؟
بالله ان كنت قـــد خيمت عنـــدهـم
بالمنحنى بين أنجــــاد وأجـــواد
هات الحديث عن المغنى وساكنـه
وارفع الى سنة العليـــاء اسنادى
بين الجوانح نار للجـــوى وقدت
فان قدرت فأخمـــد بعض اخمـاد
هيهات تستطيع اخمادا وذكراهـم
يزيد نار ضـــلوعى نار ايقـــاد

ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦

***

بهذا ينتهى الكتاب تقريبا ٠

وانما قلنا تقريبا لأن الكتاب لم ينته تماما ٠

ذلك ان الغبرينى بعد أن أعقب علماء القرن السادس الهجرى وعلى وجه التحديد نهاية هذا القرن ٠

أقول : بعد أن أعقب أبا مدين ومن معه بمشيخته هو أى بأساتذته الذين قرأ عليهم ، وثلث بعلماء القرن السابع ٠

رأى أن يختم الكتاب ببرنامج مشيخته ، وهو يقصد ببرنامج مشيخته توزيع العلوم التى درسها على شيوخه ٠

وبلغة العصر الحديث جدول حصصه ، أو جدول محاضراته على حسب المراحل التعليمية التى تدرج فيها ٠

وقد قسم هذه العلوم الى قسمين :

علوم دراية

وعلوم رواية

ورأى ان علوم الدراية هى : علم الفقه وعلم الأصلين : أصول الدين وأصول الفقه وعلم العربية وعلم المنطق وعلم التصوف ٠

أما علوم الرواية فالمقصود المهم منها انما هو علوم تفسير القرآن الكريم !! وعلوم الحديث

ويعرد فيذكر علم الفقه وعلم العربية وعلوم التصوف والتذكير وهذا يعنى أن لهـذه العلوم المكررة أو المشتركة بين الدراية والرواية جانبين : جانبا عقليا وجانبا نقليا ٠

ومهما يكن فهو قد قرن كل علم من علوم الدراية أو من علوم الرواية بالشيوخ الذين درسوا له هذا العلم أو ذاك ، ناظرا فى ذلك الى تخصص كل شيخ أو كل طائفة من الشيوخ ، اذ كان قد اشترك فى تخريجه فيه اكثر من شيخ ٠

***

ومما يلفت النظر أنه يؤكد جانب السنـد فى علوم الرواية وينتهى بسندها الى مصادرها الأولى كمالك والشافعى والبخارى ومسلم والليث ابن سعد والطرشوشى والجزولى وسحنون ، وسيبويه وأبى على الفارسى والزمخشرى وابن قتيبة وأبى تمام والحريرى ٠٠٠٠٠ وهنا نتساءل :

ألم يكن وصول كتب العلماء السابقين الى الغبرينى كافيا لنا ومغنيا له عن هذا السند الدقيق والوثيق ، والذى هو فى نفس الوقت شاق ومجهد:!

طبعاً كان ذلك كافيا وشافيا ٠

لكنها الدقة العلمية من الغبرينى ، أو لكنه الالتفات الشديد الى جوانبه العلمية :

يبرزها ويفرزها ويصنفها ليوزعها على أصحابها الذين أعطوها له أو أخذها هو منهم ٠

ربما ليقول لنا :

اننى ان كنت أصبت فيما نصبت واجتهدت ٠
وان كنت أخطأت ، فالعهدة على الكتاب الذى عنه نقلت أو على الشيخ الذى منه أخذت ٠

ربما

وقد تكون الأمانة العلمية والاعتراف بالفضـــل لذويه هو الذى جعله يجهد نفسه ويجهدنا معه . غفر الله له ورحمه .

***

بقيت كلمة عن أسلوب عنوان الدراية :

وواضح أنه أسلوب سهل وساطع .

فالغبرينى لا يتقعر ولا يتوعر ، وانما يطلق نفسه على سجيتهـــا تسقط الكلمات بخفة على أفكارها ، أو تجذب الافكار كسوتها اللغوية اليها جذبا رقيقا لطيفا ممتعا .

انه يكاد يكون مثالا لما نسميه اليوم بالأسلوب العلمى المتأدب وهذا الأسلوب يستخدم فى مجالين اثنين هما :

الدراسات الانسانية .

وتيسير العلم .

وفى الحق أن عنوان الدراية موزع على هاتين الناحيتين :
فالكلام عن العلماء دراسات انسانية

والكلام عن علمهم تيسير لهذا العلم بخلخلته من مصطلحاته العلمية ، وجعله مفهوما للقارىء غير المتخصص .

***

أما منهجــــه :

فهو المنهج القائم على وحدة الترجمة .
لا أبواب ولا فصول .
وانما تراجم متتابعة واكاد أقول متشابهة .

يبدأ الترجمة باجمال مداركها من فقه أو لغة أو نحو أو تفسير أو حديث أو أصول أو تصوف أو ولاية أو خطابة أو قضاء أو أدب .

يعطى لمترجمه من ذلك ما نبغ فيه واشتهر بين الناس به ثم كرامات أو تأليف أو مشيخة وسند .

واذا غلبت على من يكتب عنه ناحية انشائية مثل لها تمثيلا يتردد بين الطول والقصر .

وهو فى الأعم الاغلب يصحبه من ولادته الى وفاته ، ولربما أرخ لهذه الوفاة وحدد مكانا .

وبعـــد :

فقد أنهى الغبرينى كتابه فى صفحة ٣٢٣ داعيا للمؤلف والكـــاتب والقارىء والراوى بالنفع ، وبجعل مقصدهم من أفضل المقاصـــد وأحسن المساعى .

وأطمح ـ وقد عايشت الكتاب وعرضته وحللته ـ ان اكون داخلا فى هذا الدعاء من بابين :

باب القراءة .

وباب الرواية .

فأنا بهذه الدراسة لكتابه قد قرأته ورويته .

وأشهد : لقد كان قصدى فيما قمت به نحو كتابه من أفضل المقاصـد واحسن المساعى .

ان أريد الا الاصلاح ما استطعت .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ؟

قسنطينة فى
١٩٧٨/٥/١٢

- ٤ -

أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى

هذا الكتاب من ذخائر المغرب العربي ، ونحن اذ نعرض له بالتحليل والدراسة في سلسلة التراث الادبي للمغرب العربي ، وانما نفعل ذلك على سبيل التوسع في معنى الأدب ؛ فهو دراسة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية ودينية ٠

واذا كان الأدب مرآة تعكس انفعالات الأديب واهتماماته الانسانيـة مهما تنوعت اتجاهاتها واختلفت محاورها ، فانه كذلك وبنفس المقدار يعكس نبض الأمة ويرصد مشاغلها حكاما ورعية ٠

وليس ردة من الأدب ولا خروجا على رسالته ما نراه أحيانا عند ذوى الميول الاصلاحية من توسع فى مفهومه ٠

واذا كنا ــ بسبب موضوعاتهم ــ لا ننحاز بكتاباتهم الى النثر الأدبى الخالص ٠

واذا كانا ايضا ــ بسبب تلوين هذه الكتابات بالصبغ الفنى الجمالى ــ لا ننحاز بها الى النثر العلمى الخالص ٠

فان هذه الكتابات تقع وقوعا طبيعيا ــ واكاد اقول : آليا ــ فى المنطقة الوسطى بين النثرين العلمى والأدبى ، وهى ما تسميه الدراسات النقـدية الحديثة بالأسلوب العلمى المتأدب ٠

ومن هذه الكتابات ، أو من هذا الأسلوب ٠
« أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى » ٠

فهو كتاب علم اذا نظرنا الى مضمونه ، وكتـاب أدب اذا نظرنا الى صياغته ، هو مزيج من الفكر والشعور ، وقد كتبه صاحبه بحماس المصلح الاجتماعى ، وغيرة رجل الدين الملتزم ، وقد جاءت أفكاره لهـذا مزجاة بالعاطفة ، عاطفة الحب للسلطان والنصح له ، وعاطفة الحب للدين والحرص عليه ٠٠

وستعلم بيئة الكتاب وتاريخ تأليفه وظروف هذا التأليف ، ونحن نعرف بمؤلفه المغيلى ، وبمن ألفه له وهو :

الأسقيا محمد الأول ملك سنغاى وصاحب الأسئلة(*)

هو ابو عبد الله محمد بن ابى بكر الملقب بأسكيا ، سراكولى الأصل ، هاجر أجداده فى نهاية القرن الحادى عشر من جنوبى موريتانيا الحالية ـ وقد كانت جزءا من مملكة غانا ـ الى بلاد النيجر ، وامتزجوا بالمصاهرة والنسب مع قبيلة سنغاى ٠

ولما كبرت تلك القبيلة وأحست بقوتها بعد دخول السراكوليين فيها ، وامتزاجهم بها ، بدأت تتوسع وتتحول الى امارة ، لكنها كانت امارة صغيرة تابعة لملكة مالى ٠

ولما بدأت عوامل الضعف تنخر فى جسم هذه المملكة ، وعلى وجـــه التحديد فى سنة ١٣٣٦ م استقلت امارة سنغاى عنها بقيادة آل سنى ٠

وفى عهد الأمير سنى على بارو [١٤٦٥ ـ ١٤٩٢ م] كان الأسقيا محمد أحد الضباط البارزين فى جيشه ، والرجل المسئول عن سياسة التوسع، لكن الملك سنى على كان حاكما مفسدا ، وربما كافرا ملحدا ، كما سنرى فى الأسئلة والأجوبة ٠

ولهذا رأينا الأسقيا محمدا يقوم بثورته عليه ويسقطه عن عرشه سنة ١٤٩٣ م ، وقد انتهى بهذا حكم آل سنى الذى استمر (١٥٧) سبعا وخمسين ومائة سنة ٠

ولما كان الأسقيا محمد قد جاء الى الحكم عن طريق ثورة ؛ فانه رأى لزاما عليه أن يوطد ملكه ، وأن يثبت وجوده على عرش سنغاى ٠

ومن هنا كانت اصلاحاته الكثيرة ومسايرته للفقهاء ولرجال الدين ، ولعل أصله السودانى كان أحد عوامل نجاحه ٠

---

* قيل فى تبرير لقب [اسقيا] أو [اسكيا] : ان بنات سنى على لما قام محمد الاول بالثورة على أبيهن وبلغهن ذلك بلن : [اسكيا ؟] أى أهو نفسه ؟ فالتصق تساؤلهن بمحمد الاول من ذلك الوقت ٠

أما آل سنى فهم أما زيغ بربر ، جاءت أصولهم من منطقـــة طرابلس الغرب مرورا بفزان الى السودان ٠

ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى كان الأسقيا محمد قد تحول بمملكته من الشكل القبلى الى الشكل الوطنى الذى يسمح لجميع القبائل بالمشاركة فى الشئون العامة للبلاد ٠

وفى سنة ١٤٩٦ م سافر للحج ٠

وقد أنفق فى هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية ، فانه اشترى فى مكة أرضا ودارا يأوى اليها الحجيج السودانى ، وقد ظلت تعرف بـ[رواق التكرور] ولكثرة نفقاته قوبل باحترام كبير من جانب شرفاء مكة ، وقلده كبيرهم مولاى العبـــاس شارات السلطنة ، ولقب [أمير السودان الغربى وخليفة السودان كله] ٠

وقد سعد الأسقيا بذلك سعادة عظمى ، ولا عجب : فهو قد كسب المكانة السياسية على أساس شرعى فى نظر رعاياه وغيرهم ٠

واثر رجوعه من الحج بروح معنوية عالية ، انهمك فى الفتوح الدينية، فأخضع بلاد الموسى ، وبسط نفوذه على معظم أقاليم السودان الغربى ٠

وقد بلغت سنغاى على عهده من التوسع ما لم تبلغه فى تاريخهـــا الطويل كله ، بل ما لم تبلغه مملكة غيرها فى طول السودان وعرضه ٠

***

وفى آخر أيامه خلعه أكبر أبنائه وولى عهده المسمى موسى ، وكان ذلك فى سنة ١٥٢٨ م ٠

***

وعلى الرغم من أن أبناءه وأحفاده الذين حكموا بعده لم يكونوا مثله فى القوة ولا فى التمسك بأهداب العدل ، الا أن مملكة سنغاى ظلت بقوة دفعة عظيمة ومسيطرة على جميع ما كان بيده ، حتى أنهى جيش المنصور الذهبى السعدى عهد آل اسقيا بانتصاره على جيش اسحق الثـــانى آخر

السلاطين الأسقيين سنة ١٥٩١ فى معركة [توندينى] الى الشمال الغربى من [غاو] العاصمة ٠

وبهذا يكون حكم آل أسقيا لسنغاى قد استمر مدة ثمان وتسعين سنة من ١٤٩٣ الى ١٥٩١ م(١) ٠

المغيلي مؤلف الأجوبة

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى ، والمغيلى نسبة الى قبيلة مغيله التى كانت تقيم بالقرب من تلمسان ٠

واذا كان تاريخ ولادته مجهولا ، فان تاريخ وفاته هو سنة ٩٠٩ هـ ٠

كان من أبرز المثقفين وقادة الفكر فى عصره ، وقد انتقل بعد اتمام دراسته من الشمال الى الجنوب فسكن الصحراء ، ولا يعرف لذلك سبب مؤكد ، ولو أنه يمكن القول بأن حملته على اليهود الذين كانوا مسيطرين فى أهم مدن الشمال على مصادر التجارة والمال ، هى التى ضيقت عليه فى عيشه واضطرته الى الهجرة ويسهل تصور ذلك اذا علمنا أن اليهود كانوا قد اشتروا ذمم بعض المسئولين الرسميين وجعلوهم صنائع لهم وسيوفا يسلطونها على خصومهم ٠

ولم يكن حظه فى الجنوب بأحسن منه فى الشمال ، فقد وجد اليهود يشاركون بنشاط كبير فى حركة القوافل التجارية مع السودان ، ويتصرفون بحرية أكثر من الحرية التى يتمتعون بها فى الشمال،أى أن المغيلى كان فى انتقاله من الشمال الى الجنوب بسبب اليهود كالمستجير من الرمضاء بالنار ٠

لكنه هذه المرة كان ايجابيا بدعوته الملحة الى محاربتهم ، وبهدمه مع بعض أصحابه عددا من بيعهم بمدينة [توات] وما جاورها ٠

ولما لم يجد للنيل اليهود آخرا انتقل الى [كانو] حيث اتصل بأميرها وكتب له رسالة ارشده فيها الى التزام الجادة الاسلامية فى حكمه ٠

---

(١) انظر « مملكة سنغاى فى عهد الاسيقيين » تأليف رابح بونار طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧١ م ٠

وبعد أن درس بمساجد [كانو] مدة ، انتقل الى [غاو] واتصل بالأمير اسقيا محمد الكبير ، فأكرمه هذا الأخير ، وكتب عدة أسئلة ، رجاه الاجابة عنها طبقا لمبادىء الاسلام ·

***

وينسب المؤرخون للمغيلي أربعة عشر كتابا معظمها في الفقه، وبعضها في اللغة ·

هذا عدا رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح ·

ومن رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح أجوبته على أسئلة الاسقيا ·

***

وقد كان المغيلي بعلمه الواسع وبعمله الشجاع في حث الملوك والرؤساء على سلوك سبيل الحق ، صاحب شخصية قوية استطاع بهـــا التأثير على الناس في السودان حتى صار اسمه مقرونا لديهم بلقب [الامام] ·

ولم يكن هذا حاله في السودان وحده ، بل كان هذا حاله في المغرب قبل مجيئه الى السودان ·

لقد كان المغيلي من الصراحة والجرأة بحيث شهر بانحراف المسئولين في المغرب عن جادة الصواب ، وأنذرهم عاقبة أمرهم وتنبأ بهجوم البرتغال والأسبان على بلادهم · وقد صدقت نبوءته ·

اهميـــة الكتـــاب

تتمثل أهمية هذا الكتاب في أنه يلقي الضوء على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية في مملكة سنغاي على عهد الأسقيا محمد الأول الذي يبدو صريحا وهو يسأل المغيلي عن عدد من الأمور التي كـانت تشغل باله ، ويطلب منه الاجابة عنها على حسب تعاليم الاسلام ، أما المغيلي فقد رأيناه من خلاله رجل دين واصلاح ·

ونحن نذكر به وبآرائه التقدمية الجريئة ابن خلدون وابن تيمية وعز الدين

ابن عبد السلام وجمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده ومحمد اقبال وعبد الحميد بن باديس والشيخ حسن البنا والشهيد سيد قطب ٠

كما رأيناه عالما واسع الاطلاع طويل الباع فى كل ما يتصل بشئون الدين والدنيا وصاحب قلم مطواع يعالج به كل ما يخطر له على بال ، ولو خرج فى ذلك عن حدود السؤال ٠

واذا كان الكتاب بشقيه [الأسئلة والأجوبة] يهم المؤرخين لأنه الوثيقة الوحيدة التى جاءتنا عن عهد الاسيقيين فى سنغاى ، فانه كذلك يهم رجال العلم والأدب والسياسة والحرب والاقتصاد والاجتماع ، وهو الى ذلك يعطى صورة من التبادل الثقافى والفكرى بين المغاربة وجيرانهم السودانيين ٠

وأول خطوة على هذا الطريق كانت تلك الفرقة الصغيرة التى دفع بها عقبة بن نافع فى اتجاه فزان فوصلت الى تشاد ٠

وقد بلغ ازدهار الثقافة الاسلامية بالسودان الغربى مرحلة الأوج فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وفى هذين القرنين بالذات ، وعلى وجه التحديد ما بين سنة ١٥٠٢ ، ١٥٠٣ وضع هذا الكتاب بالاشتراك بين المغيلى رجل الدين والمصلح الاجتماعى بل عالم الاجتماع ، وبين الأسقيا محمد الأول رئيس دولة سنغاى وهو ملك كان يهتم كل الاهتمام باصلاح حال رعيته وتقويم سلوكها بما يتلاءم وقوانين الاسلام ٠

وقد صدر الكتاب بتحقيق الأستاذ الفاضل عبد القادر زبايديه عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر المحمية سنة ١٩٧٤ م ٠

عرض وتحليل الكتاب :

جاء هذا الكتاب فى سبع مسائل ، فى كل مسألة أكثر من سؤال ، اجل فليست مسائله بسيطة بل مركبة ، بمعنى أن كل مسألة مكونة من خيوط كثيرة تكون جديلة كبيرة تسمى مسألة ٠

وها هى ذى فى دراسة موجزة مركزة ، يغنى فيها الشاهد عن الغائب، والمنظور عن المستور ، وعلى من يريد الاستيعاب أن يقرأ الكتاب كله ٠

المسألة الأولى

تبدأ المسألة الأولى بل يبدأ الكتاب بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله هكذا :

من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى الى الامير الحاج ابى عبد الله محمد بن ابى بكر الملقب بأسكيا ٠

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، اما بعد ٠ أعاننا الله واياك على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فانك سألتنى عن مسائل : أولها : ـ أنك قلت : مذ من الله علينا بالاسلام ، أصابتنا مصيبة فى هذا البلد ؛ لعدم الامانة فيمن ينتسب الى العلم من قراء بلادنا ، ومن صفتهم انهم لايفقهون من العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم ، على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار ٠ ومنهم قضاة ومفسرون يتكلمون فى دين الله ويزعمون انهم من العلماء الذين هم ورثة الانبياء ، وأنه يجب علينا الاقتداء بهم ٠

وأنا أطلب من الله ثم منك ان تفتى لى بما علمك فى هؤلاء القراء :

هل يجوز لى ان نعمل بقولهم فى دين الله ٠ ويخلصنى تقليدهم عند الله ؟ او لا يحل لى ذلك ، ويجب على البحث عمن نوليه الحكم ونقلده فى أمور الدين ؟

وبين لنا صفة من يصلح لذلك شرعا ٠

ثم اطلب منك ايضا ان تشفي غليلي بترتيب الاجوبة على هذه الاسئلة وبزيادة ما تيسر لكم من النصيحة أيضا ٠ ص ٢١ ـ ٢٢

انتهى السؤال الاول من المسألة الاولى ، ونبادر فنقف منه عند نقطتين هامتين للايضاح والشرح ٠

النقطة الاولى أن الاسقيا محمدا اشار بل صرح بأن قـراء بلده وفقهاءها من اصل عربي ، وانظر قوله : ـ [لا يفقهون من العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم] ٠ وهى اشارة تاريخية ذكية وصائبة ؛ فقد أثبتت ابحاث العلماء انه قد حدثت هجرات لجماعات من شبه الجزيرة العربية ـ وبخاصة المنطقة الجنوبية ـ الى أفريقية ولو أن معظم هؤلاء المهاجـرين كانوا يستقرون فى الشرق من أفريقيا ، ولا يصل الى السودان الغربى منهم الا القليل ، وقد عوض ذلك أن العلاقات بين المغرب والسودان كانت وثيقة وقوية ؛ فقد حصلت هجرات عديدة من بلاد المغرب الى السودان وبالعكس . وما هو ذا المغيلي في السودان مفتيا للملكي (كانو) و (غاو) ومستشارا خاصا لهما ٠

النقطة الثانية

ما يبدو من تناقض بين وصف الاسقيا لرجال الدين فى دولته بأنهـم لا يفقهون من العربية الا قليلا على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلمـاء ، ولا موضع التصحيف والتحريف ، ثم يعطف بقوله : ـ « ومع ذلك لهم كتب يدرسونها ، وحكايات وأخبار ، ومنهم قضاة ومفسرون » ٠

ولا مخرج لنا من هذا التناقض الا بجعل كلمة (لهم كتب) بمعنى عندهم كتب ، فليس بلازم ، بل ولا يعقل وهذا حالهم أن تكون من تآليفهم ٠

والآن : مع جواب المغيلي عن سؤال الاسقيا ، قال بادئا بنصحه : ـ

اعلم اعاننا الله واياك أن الملك كله لله ، وما النصر الا من عند الله فكن لله عبدا بطاعته يكن لك ربا بحفظه واعانته ، انما أنت مملوك لا تملك شيئا ، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم ، لا لتكون سيدهم ومولاهم ، وأنت فى جميع أمرك راع لا مالك ، وكل راع مسئول عن

رعيته ، فانظر لنفسك قبل الفوت فانه لابد لك من الموت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة الا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » · وقال : —

اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به » ·

اكتب كلام المغيلى وانا مبهور ، وكم أود ان يقرأه علماؤنا الأفاضل فى شتى المجالات . وخاصة مجالات الوعظ والارشاد ، وعلى وجه أخص من يخطب منهم حتى خطبة الجمعة — وهى خطبة شرعية لها شروط وأركان — فى حضرة الملوك والرؤساء أو من هم دون الملوك والرؤساء ·

وترن فى أعماقى كلمات المغيلى لملك سنغاى وخليفة السودان كله : فهو بادىء ذى بدء يصادره ملكا ، ولا يخلى بينه وبين وظيفته الرسمية فى الدولة قبل أن يعظه ويذكره ، خشية أن يركبه الغرور ، ويبعده الكبر عن الناس ·

وأعيدوا معى قراءة هذه الرقع الارجوانية : « انما انت مملوك لا تملك شيئا ، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده . لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم أنت فى جميع أمرك راع لا مالك · أنظر لنفسك قبل الفوت : فانه لا بد من الموت » ·

يا أبنائى الوعاظ ، بل يا آبائى الوعاظ ، احفظوا هذا الكلام ووازنوا بينه وبين ما تقولونه فى مثل هذا المقام ، ثم انظروا فى مرايا ضمائركم . ومن فضلكم لا تحكموا على أنفسكم بالاعدام ·

والوضعية السليمة للملك أو الرئيس أن يناط به اصلاح دين الناس ودنياهم لا أن يكون سيدهم ومولاهم ، أى أن منصبه تكليف لا تشريف ·

ويا من تؤمنون بجان جاك روسو ونظرية العقد الاجتماعى ·
ثم يا من تنكرون أن الاسلام دين ودولة ·

تعالوا فانظروا ماذا قال المغيلى منذ ست وسبعين وأربعمائة سنة

***

ولا يقف المغيلي عندما طلب منه الاجابة عنه ، فها هو ذا يستطرد الى موضوع جديد بقوله : ـ وكيف يعمل مع أقاربه ؟

قضية عثمان اذن :

وهي قضية مؤكدة ؛ لأنها متجددة وقائمة في كل زمان ومكان . وهـ شيء طبيعي : فالحاكم ـ أي حاكم ـ ليس نباتا شيطانيا ، وانما هو ابن وطنه وأمنه ـ وقبل ذلك ابن بيته وأسرته . فماذا يعمـــل مع أقـــاربه ؟ أجل ماذا يعمل ؟

يجيب المغيلي عن هذا السؤال بقوله : ـ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من وال الا وله بطانتـــان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه الا خبالا ، فمن وقى شرهما فقد وقى .

اذا علمت ذلك أيها الامير فعليك بأمرين :

الأول : أن تبعد عنك أهل الشر ، وأن تقرب منك أهل الخير لأن من الغالب على الانسان التأنس بقرينه ، والميل الى طبعه وتزيينه ، فمن قربته من نفسك فقد مكنته من أذنك ، ومن مكنته من أذنك فقـد مكنته من قلبك ، لأن الاذن زمام القلب ، ولذلك قال مالك بن أنس : ـ

لا تمكن زائغ القلب من أذنك ، وقال بعض الحكماء : ـ

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فـكل قـرين بالمقـــارن يقتـــدى

وفي ذلك قلت : ـ

اذا قرب السلطـــان أشرار قومه وأعرض عن أخيارهم فهو طـالح
وان قرب السلطان أخيـــار قومه وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرىء ينبـــك عن قرينـــه وذلك في أمـر البرية واضـــح

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله بقوله : ـ

اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير ســـوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه .

والثاني : _ ان تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله في كل ما حملك منها ، قال الله تعالى : _

« ومن لم يحكم بما انزل الله فأللئك هم الكافرون » ، « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون » ثم قال تعالى « واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

والذكر هو القرآن ، واهله من اجتمع فيه وصفان : العلم والتقوى ، لان بالعلم يعرف الرشد من الغي ، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغي .

فلا تقلد في دينك الا من ثبت انه عالم تقي ؛ لأن من لم يثبت أنه عالم يخاف أن يضل ويضل بعماه ، ومن لم يثبت أنه تقي يخاف عنه أن يضل بهواه ، ألم تر الى قول الله تعـالى : _ يأيهـا الذين امنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

وبنظرة نقدية نافذة يغربل المغيلي علماء وقته فيقول : _

ان كثيرا من علماء هذه الامة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد في جميع البلاد ، فالجهاد فيهم وفي أنصارهم أفضل من كل جهـاد ، قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم : _

« أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ، فقيل ممن يا رسول الله ؟ قال من علماء السوء » .

وعن أبي حذيفة اليماني رضي الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه ثم قال : ان الدين قد استضاء استضاءة هـذه الحصاة ، ثم اخذ كفا من تراب فجعل يدور على الحصاة حتى واراها ثم قال : _ والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا (كمـا دفنت هذه الحصـاة) . ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدة بالقدة والنعال بالنعال .

فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين بألا يتركوا احدا يتكلم في دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى حتى يكون من أهل العـلم والتقوى . ولذلك لما قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه البصرة دخل جامعها فوجد القصاص يقصون ، فأقامهم حتى جاء الى الحسن البصري رضي الله

عنه فقال : يا فتى . انى سائلك عن شيء فان انت اجبتنى عنه بقيتك ، والا اقمتك كما أقمت أصحابك .

- وكان قد رأى عليه سمتا وهديا - قال الحسن : سل عما شئت قال . - ما ملاك الدين ؟ قال : الورع . فقال : وما فساد الدين ؟ قال :- الطمع ، قال اجلس مثلك يتكلم على الناس .

اليس من اعظم الواجبات على كل امير أن يطرد عن طريق الدنيا جميع المفسدين ؟ فكيف لا يجب عليه أن يطردهم عن طرق الدين ؟!!

وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن كثيرا من قراء هذه الامة انما هم من علماء السوء ، وعلماء السوء انما هم لصوص الدين ، وأضر على المسلمين من جميع المفسدين ، ولذلك قال ابن المبارك رضى الله عنه :-

وهـل أفسـد الدين الا الملـوك وأحبـار سـوء ورهبـانهـا

وقال بعض الادباء :-

قضـا زمانا نفـصحوا لصوصا عمـوما فى البرية لا خصوصا
فلو عند التحيـة صـافحونا لحلوا من خواتمنـا الفصوصـا

واستكمالا للاجابة ووصولا بها الى بؤرة الشعور من الملك السائل هذا الكلام الاستطرادى للمغيلى قال :-

فان قلت : قد بينت وأوضحت أن كثيرا من علماء هذه الأمة ليسوا من أهل الذكر ، انما هم من علماء السوء الضالين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ولكن كلا منهم يقرأ القرآن والحديث وكثيرا من نصوص الكتاب ويزعم أنه من أهل الذكر . وينكر أنه من علماء السوء ، فبأى شيء نفرق بين أهل الذكر وعلماء السوء ؟ وكيف يفعل من ولى شيئا من هذا الامر ، ولم يجد فى بلده أحدا من أهل الذكر ؟

فالجواب والله الموفق للصواب أن الله يجعل لكل هاد من أهل الذكر أنوارا فى كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار .

وبيان ذلك ان حكمة الله ألا يعذب قوما حتى يبين لهم ما يتقون وتلك

سنة الله في الأولين والآخرين . لئلايقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين .

ومن حكمته كذلك أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الانبياء في الأولين ومن أهل الذكر في الآخرين ، لأن الله جعلهم للهداية واقامة الحجة في هذه الأمة كالانبياء في الامم الماضية ، ولذلك روى أن في رأس كل قرن يرسل الله للناس عالما يجدد لهم دينهم .

ولهذا العالم علامات متى تبيناها فيه تعين أنه من الصالحين ، أما علماء السوء فمن أبين علاماتهم أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح . فمثلهم كمثل الصخرة في باب النهر ، لا تشرب ولا تترك من يشرب .

وبعد كلام طويل من هذا القبيل يحس المغيلي ـ كما احسسنا ـ أنه غير واضح ، وبناء عليه غير مقنع ، وهو لهذا يعود فيبدأ من حيث انتهى ويقول على سبيل القطع : ـ

وان لم تفهم ما قررناه واشكل عليك شيء مما ذكرناه ، فاعلم أن القراء كلهم ثلاثة أنواع : ـ

الاول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقي .

الثاني من تبين لك بلا شك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقي .

الثالث من شككت فيه .

فمن تبين لك أنه عالم تقي فهو من أهـــل الذكر فاسأله عن دينـــك وقلده . ومن تبين لك أنه ليس بعالم وأنه ليس بتقي ، فليس هو من أهل الذكر فلا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه .

ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم : هل هو عالم تقي أو لا ، فقف عنه أيضا ، ولا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله ولو كان فصيحا عربيا يحفظ ما في جميع الكتب حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقي .

اذا علمت ذلك لم يلتبس عليك أمر القراء في هذا الزمان ووجب عليك أن تطلب عالما من أهل الذكر .

ثم اعلم أن تأخيرك النظر فى الامور حتى تستفتى من يعد عنك من أهل الذكر تضييع لكثير من الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، فبـــادر بالنظر فى جميع الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، واعلم أن الامور كلها ثلاثة انواع : ـ

فكل امر علمت أنه مما امر الله به فافعله،فانه خير ولا يأتى منه الاالخير وكل امر علمت ان الله نهى عنه فاتركه ، فانه شر ولا يأتى عنه الا الشر .

وهذان النوعان كثير ، فاذا شغلت باصلاحهما ونصحت فيهما كثر خيرك قولا وفعلا ، وملأت بلادك قسطا وعدلا .

وكل أمر شككت فى حكمه ، وخفت من اثمه فعليك فيه بالاحتيــــاط الصارف عن الشبهات ، فان الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات . فاقطع الشك باليقين ؛ واحتط لدينك أكثر ما تحتاط لدنياك فى كل حين .

والمغيلى هنا يضع الموازين للملك ، ليزن بها الرجال والاعمال ، ويزوده بما يلزمه فى مجابهة الامور التى تستجد حتى لا ينتظر الفتوى من أناس قد يبعدون عنه ، وهو ينطلق فى هذا من اعتبارين : ـ

الاول : ان على الانسان أن يجتهد .

الثانى : أن على الانسان ألا يتردد فى اختيار ما يراه مناسبا حرصا على البت السريع وبخاصة فى الاحوال التى يكون التأنى فيهـــا مضيعة للوقت .

وتمكينا لعوامل الفساد من الانتشار فى الارض .

ولم يتقو المغيلى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من اجتهـــد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله اجر» ، لم يتقو المغيلى بهذا الحديث الشريف ، لأنه أراد لكلامه أن يكون عقليا أكثر منه نقليا ، ولعل هذا هو السر فى أنه ساق كثيرا من الأمثلة التى تثبت أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ولا بأس على الامام اذا تحرك من هذا المنطلق ، لأنه اذا كان جلب المصلحة واجبا ، فانه واجب على التراخى ..أما درء المضرة فهو ـ مع أنه واجب ـ واجب على الفور .

المسألة الثانية

تدور هذه المسألة حول أمور كثيرة منها معتقد سنى على وسلوكه ، فقد كانت أمه من أهل بلاد فار وهم قوم كفار يعبدون الاصنام من الاحجار والأشجار ، يتصدقون لها ويطلبون حوائجهم عندها ، فان أصابوا خيرا زعموا أن تلك الأصنام هى التى أعطتهم ، وان لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم.

وكان سنى على من صغره الى كبره كثير الاقامة عندهم فجرى على معتقدهم وتطبع بطباعهم ، أجل انه كان ينطق بالشهادتين ويتكلم بألفاظ المسلمين مع عدم معرفته بحقيقة ما ينطق به . انما يقول ذلك بلسانه ، وربما سمع اسم النبى فقال : صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم .

ومن صفته انه مارؤى فى جامع ولامسجد يوم جمعة ولاغيره ، وفى دائرته وديارة ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم ان يصلى صلاة ولا أن يصوم يوما من رمضان خوفا منه أن يعاقبه على ذلك ، وأما هو فى نفسه فلم يكن يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلى صلاة مكتوبة فى وقتها ولايقوم ويركع ويسجد فيها ، انما يترك الصلوات الخمس الى آخر الليل أو الى ضحى الغد ثم يجلس ويومىء الى السجود من جلوسه وهو صحيح قوى لاعلة به ، ولايقرأ فى صلاته تلك شيئا ، انما يذكر اسم صلاته فيقول بدلا من ركوع المغرب : المغرب ، وبدلا من سجودها : المغرب ، وكذلك فى سائر الصلوات . ومن صفته كذلك أنه لا يتوقف فى النساء على نكاح ولاغيره من الشروط الاسلامية ، بل كلما أعجبته امرأة فى جميع مملكته أخذها وأدخلها فى بيته وفراشه ولا يبالى بزوجها ولا الحسد ، ويجمعها مع أمها فيتلذذ بهما معا .

وأنه حلل دماء المسلمين وأموالهم فقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان والرضع وغيرهم . وأفسد منهم مثل الذكر والأنثيين وقطف الأنف واليدين ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى ، وفساده فى الأرض بذلك ونحوه مشهور ولم يسمع قط بمثله فى الاسلام ، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات [ص ٣٤ ـ ٣٨]

هذا الواقع البشع لسنى على قد يكون أمرا مبالغا فيه من الأسقيا تبريرا لثورته عليه وخلعه له .

لكن يبقى أن لهذا الوضع السيىء أصلا يرجع اليـــه وتاريخا يثبت صدقه ، فقد كانت أمـور المسلمين فى الســودان الغربى قريبة مما ذكر الأسقيافى سؤاله الموجه منه الى المغيلى :

دخل الناس فى الاســـلام واعتنقوه مع الاحتفاظ بعاداتهم الوثنية ، والابقاء على سلوكهم القديم ، أى أن اسلامهم كان سطحيا لاعمق فيه ولا لب له لأنه لم تنفر من كل طائفة منهم طائفة ليتفقهـوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ٠

وسنى على واحد من شعبه بل اكثر من ذلك كانت أمه وثنية وكذلك كان اخواله،وقد نشأ فيهم وتربى بين أحضانهم ، فلا عجب أن كان اسلامه مشوبا بهذه المظاهــر الوثنية التى كانت جذورهـــا فيه أمكن من جـــذور الشعائر الاسلامية ٠

وننتقل الى اجابة المغيلى لنرى بماذا رد ؟

قال : ـ الجواب والله الموفق للصواب أن سنى على وجميــع أعوانه وأتباعه وأنصاره ، لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، وجهاد الأمير فيهم وأخذه السلطنة منهم أفضل الجهاد وأهمه ٠

وأماقولك هل هم كفار أم لا ؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة ، انما يكون التكفير بأحد أمور ثلاثة ٠

الأول : أن يكون نفس اعتقاده كفرا كانكار الصانع أو صفة من صفاته التى لا يكون صانعا الا بها ، أو جحد النبوة ٠

الثانى : صدور مالايقع الا من كافر وان لم يكن فى نفسه مثل استحلال شرب الخمر ، وغصب الأموال وترك فرائض الدين والقتـــل والزنى وعبادة الأوثان والاستخفاف بالرسل وجحد شىء من القرآن ٠

فهذان الأمران الاجماع على من ثبت عليه واحد منهما حكمنا بكفره

الثالث : أن يقول قولا يعلم أنه لايصدق الاممن لا يعلم الله تعالى ، وان كان قائله يزعم أنه يعرف الله ٠

وهذا مختلف فيه بين العلماء ، هل يكفر به أو لا ، وعليه اختلفوا فى تكفير المعتزلة ونحوهم من أهل البدع ٠

واذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذى ذكر تموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ،

فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر ، وكذلك كل من عمل بمثل عمله ، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك ·

وأما استرقاق أولادهم فلاأراه وان ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لأن الكفار ثلاثة أصناف ·

الأول : من هو كافر صريح بالأصالة كالمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح عن آبائه ·

الثانى : من كان مسلما ثم ارتد ارتدادا ظاهرا فصرح أنه خرج عن دين الاسلام ودخل غيره من أديان الكفر ·

الثالث : من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره ، لأنه صدر منه مالايقع فى الظاهر الا من كافر كما ذكرتم فى سنى على ·

فالكفار بأصالة الكفر تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم لاخلاف فى ذلك بين العلماء ·

وفى الكفار بالارتداد خلاف : قال ابن القاسم فى أهل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الاسلام الى الكفر : لاتسبى ذراريهم ونساؤهم ، وأما أموالهم فهى فىء للمسلمين ·

قال ابن رشد : وهذا هو الصحيح من جهة النظر ، لأن المرتدين أحرار من أصلهم قال : والى مذهب ابن القاسم فى المرتدين ذهب عامة العلماء وائمة السلف ·

واذا علمتم ذلك فكل من فعل شيئا من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب فان تاب ترك ، وان لم يتب قتل بالسيف كفرا ، ولا تسترق أولادهم انما يجبرون على الاسلام [ص ٣٩ ـ ٤٠]

والمغيلى فى افتائه وآرائه مرتبط بالدين ومعتصم بحبله المتين ، فهو قد أجاب اجابة موضوعية غير متأثر بالحملة العدائية القوية من جانب

الأسقيا ضد سلفه سنى على ، لم يلف ولم ينافق بلم لم يتكلم كلاما موجها ·

العهدة على الراوى فيما أفتى به المغيلى ، والراوى هنا هو الأسقيا نفسه ، فان كان صادقا فله صدقه ، وان كان كاذبا فعليه كذبه ، أما المغيلى فهو على الحيـــاد تماما . لا انحياز منه الا الى الله ولا ولاء لراية سوى راية الاسلام ،

ولنقرأ معا قوله السليم الحكيم : « واذا علمتم ذلك تبين لكم ان الذى ذكر تموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ، فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله » ·

ونقف مما قرأناه عنـد قوله : « تبين لكم أن الذى ذكرتموه من حال سنى على علم مع الكفر » انه هنا قد ألصق الدعوى بمد عيها وقرنها به بل اكثر من ذلك ألبسها له ؛ أما هو فلا شأن له بصـــدق أو كذب ما قاله الأسقياعن خصمه ،

وما أعجب خبر [أن] فى العبارة السابقة وهو [علم على الكفر] أى علامة عليه ·

يريد أن يقول : ان الكفر هو ما ذكرتموه من أعمال وأقوال نسبتموها الى سنى على · لم يحكم صراحة بكفر سنى على ، كل ماهناك أن ماذكره الأسقيا سبب للكفر بل اكثر من ذلك هو اسم له وعلم عليه ·

وانظروا الى هذا التشكيك الصارخ فى كلام الأسقيا : [فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله] ·

ان الجواب هنا متوقف على الشرط ، والمحمول قائم على الموضوع، وليس هذا افتاء فى شأن سنى على وحده ، بل انه افتاء فى قضية عامة ، وهى تمس كل من مارس الأعمال السابقة ·

ولا يسعنا هنا الا أن ننوه بشجاعة المغيلى وجرأته ·

المسألة الثالثـــة

هذه المسألة تدور فى فلك المسألة السابقة وتجرى فى محيطها ، لأنها من قبيلها ، ولو أعمل الأسقيا ذكاءه لاستغنى فى موضوعاتها عن افتــاء المغيلى .

فهو يقول فى مسالته هذه : اننى ملكت البلاد بعد سنى على وكان قد جمع أموالا وخداما من وجوه شتى . وجئت فاستوليت على ذلك كله ، ثم تركت كل مال من ادعى أنه حر مسلم ، ولما تحريت علمت أنهم يشهـدون ويقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله ، لكنهم يعتقدون مع ذلك أن هناك ما ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا :

لهم أصنام يعظمونها ويذبحون لها ولا يقطعون أمرا صغيرا أو كبيرا الا بأمر سدنتها ، وقد زجرتهم عن ذلك كله فأبوا الا السيف .

فما الذى أفعل بهم ؟
هذا هو سؤال الأسقيا ملخصا .

وقد رد المغيلى عليه بقوله :

الجواب والله الموفق للصواب أن الملك كله لله والحكم لله من قبل ومن بعد . فاشكر نعمة الله عليك واتقه فيما ولاك وقلدك من أمور ، واعلم أن سنى على حمل حمله على عنقه واكتسب فى حمله حتى انقضى أجله فترك ذلك الحكم بينكـــم ، فحملته أنت ، فاكتسب لنفسك فى حمله ما ترجى لك بركته ، وتحمد لك عاقبته فى الدنيا والآخرة ، ولا تقل فى باطل قدرت اليوم على ازالته : هذا لا يلزمنى ; لأنى ما فعلته ، انما فعله غيرى ، فكلمافعله غيرك ثم صار اليك ، ان كان خيرا فاثبته . وان كان شرا فأزله ولو طـال زمانه ; لأن الملك والحكم لله وانت واجب عليك أن تصلح كل ما وصل اليك، ولأجل هذا كان فعلك فى اطلاق من ادعى أنه حر مسلم صوابا ، ، وكذلك كل مال تعين لمسلم معين ، واجب عليك رده .

واما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك لأن التكفير فى ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك كما بيناه فى السؤال الذى قبل هذا ، فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضـــل من الكفـــار الذين لا يقـولون : لا اله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هؤلاء الذين ذكرت لبسوا

الحق بالباطل بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يكفر وهو لا يشعر ص ٤٢ ـ ٤٦ ٠

انتهت اجابة المغيلي ، وهي أجابة صائبة من وجهة نظر الدين ومن وجهة نظر الدولة ، لان الحاكم المسلم في دولة دينها الرسمي هو الاسلام يجب عليه أن يستتيب هؤلاء الذين يعتنقون المظاهر الوثنية ويؤلهون غير الله سبحانه وتعالى . والسكوت على ذلك تقصير في حق الدين وفي حق الدولة ٠

ومن هذا الموقع المزدوج أفتى المغيلي بجهادهم وقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم وضم أموالهم الى بيت المسلمين ٠

المسألة الرابعة

وهي مكونة من ستة أسئلة . والسؤال الرابع فيه نوع من استعراض العضلات من جانب الأسقيا ، وليس معنى هذا أن مضمونه كذب فهو معقول وامكان وقوعه قائم ، وما الظن بامام عادل يتسامع الناس به في الشمال والجنوب ، وفي المشرق والمغرب ؟

انهم بلا شك سيتدافعون نحوه وسيهرولون اليه طالبين أن يكون لهم شرف الولاء له . والدخول في طاعته ، ويتأكد ذلك اذا كان سلاطينهم ظلمة لا يرعون في الله الا ولا ذمة ٠

وهذا هو السؤال الرابع عطف به على أسئلته السابقة فقال : ـ

وأيضا بعض المسلمين في شرقنا وغربنا سمعوا بي وطلبوا أن يدخلوا تحت طاعتي ، فهل أجيبهم الى ذلك ؟ أو نقف على حكم بلادنا التي أورثنا الله عن سني علي ؟

ويظهر أن الناس في السودان قد أنسوا خيرا في الأسقيا محمد بعد أن أحاط نفسه بطبقة العلماء من قراء وفقهاء وبعد أن نهض بمملكته فخرج بها من طور القبيلة الى طور الدولة ٠

وهذا فضلا عما اشتهر به في مملكته بل وفي خارج مملكته من تقى

وورع ومن التزام باقامة العدل ودفع الجور ، فلا عجب أن يتهافتوا عليه ، وأن تهفو نفوسهم الى الدخول في حكمه ٠

***

لكن بماذا رد المغيلى على هذا التطلع الى المجد ؟ وعلى هذا الاحساس المسرف بالذات ؟

أنظر ها هو ذا يقلم أظفار الأسقيا ، وبعبـــارة أدق : ها هو ذا يقلم أظفار الكبر فيه ويرده الى جادة التواضع ، والى عدم الانسياق وراء وهم كاذب أو برق خادع ٠

فقد يكون وفد هذه الامة من الحاقدين على حاكمهم أو من الظلمـــة الذين لا يعجبهم أن يعاقبوا بظلمهم وأن يسوى بينهم وبين غيرهم ٠

ولهذا اجتؤوا سياسيا الى دولة الاسقيا وحرضوه على غزو بلادهم نكاية فى حكامهم ونسيانا أو تناسيا لوطنيتهم التى كانت كفيـلة بردعهـم وبضبط سلوكهم فلا يخرجون على قواعد اللجوء السياسى ٠

وأبسط هذه القواعد انما هو عدم اشــتغال اللاجىء الســياسى بالسياسة ٠

***

قال المغيلى : ـ

الجواب والله الموفق للصواب أن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والتقوى مخالفة الهوى ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ٠

ثم اعلم أن البلاد ثلاثة : ـ

الأول : بلاد سائبة ليس لهم أمير بل مهملون ٠

فهؤلاء أجبهم الى مبايعتك والدخول تحت طاعتك ؛ لأنه لا يحل لطائفة

من المسلمين ان يكونوا معلا قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ـ « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » .

الثانى : ـ بلاد لهم أمير يرعاهم فى مصالح دينهم ودنياهم بحسب الامكان فى هذا الزمان . وهؤلاء لا يحل لأحد منهم أن ينزع يدا من طاعته ، ولا يحل لأحد أن ينازعه فى رعيته « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا بويع الخليفتان فاقتلوا الاخير منهما ، لا خير فيه .

الثالث : بلاد لهم أمير من هؤلاء الأمراء الذين وصفت :

يأخذ المكس بالظلم وبالفساد وعدم الاصلاح ، فان استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم حتى تقيم أميرا عادلا فافعل ، وان أدى ذلك الى القتال وقتل كثير من أعوانك ؛ لأن من قتل منهم شر قتيل ، ومن قتل منكم خير شهيد ص ٤٧ ـ ٥١ .

***

والمغيلى بهذا الرد الجامع المانع قد كشف من غرب الاسقيا وحد من طموحه غير المشروع .

المسألة الخامسة

هذه المسألة تعالج شئون المال والاقتصاد أصلا ، وشئون السياسة والاجتماع تبعا ، فهى تدور حول ركن هام من أركان الاسلام هو الزكاة . وقد بدأها المغيلى هكذا : ـ

قولكم : وقد جعل الله هذه البلاد تحت يدى برها وبحرها ولم يعرفوا قبلى الا الظلم والاهمال ، ولم يسمعوا قط من يناديهم لله ورسوله ، فاجاب من اجاب بخوف السيف والحمد لله ، وله مزارع كثيرة وبحر واسع كثير خيره فهل لى أن أعمل خراجا على أرضهم أم لا ؟

وأيضا : هل يجوز لى أن أنصب عاملا أمينا يجمع زكاة النعم والحرث ويفرقها على مستحقيها من الاصناف الثمانية باجتهاده ام لا ؟

وان جاز لى نصبه ، فهل لى أن اعاقب من أبى أن يؤديها ؟
وان جازت لى عقوبته فما هى ؟
وهل تجوز شهادة السلطان الذى لا يمكس ، ولا حفظ عليه ظلم فى هذا الزمان أم لا تجوز شهادته .

***

وواضح أن المراد بالسلطان فى كلام الاسقيا انما هو (المختـــار) بلغة الشام و (العمدة) بلغة مصر . فقد كان لكل منطقة أو لكل قبيـــلة بالسودان كبير أو شيخ فى هيئة سلطان .

وتتردد مؤهلاته لذلك بين أن تكون كثرة المال أو كثرة الرجـــال أو شيئا من الفضائل الذاتية كسعة الصدر ورجاحة العقل وقوة الاحســـاس بمتاعب الناس ، ومن هذا سعيه الدائب فى محوها أو على الاقل تخفيفها .

ونمضى الى جواب المغيلى فنجده يقرر أن للاسقيا بصفته اماما عادلا أن ينصب عاملا أو عمالا لجمع الزكاة وصرفها فى مصارفها التى ذكرها الله تعـالى ، لكن ليس له أن ينقل زكاة بلد الى غيره الا على وجــه النظر بالأصلح فيفرق فى أهل بلدها ما اضطروا اليه ، وينقل لغيرهم ما اضطروا اليه .

وبعد أن ينصحه بالاستغناء بالحلال عن الحرام ، يمتدحه بأنه فارس ميدانه وأوحد زمانه . ها هو ذا يقول له : ـ

واذا كان امرك الى الآن ما يستقر ، ولا ثبت على العدل ، فاصبر عن ذلك لأنك فى هذا الذى استـــقبلته وشرعت فيه غريب فى هذا الزمـــان ص ٥٤ ـ ٥٥ .

***

والخلفية التى تقبع وراء هذا الثناء أن المغيلى كان قد نقم على الحكام فى تلمسان حكمهم الظالم لشعوبهم وتقاعسهم عن رعاية شـــئون رعيتهم واتخاذهم اليهود بطانة لهم يفضلونهم على بنى دينهم .

وليس هذا فقط ، بل انه كان يرى فى كثير من حكام بلاد الاسلام بعدا عن العدل وقربا من الجور ، ولهذا اعتبر الاسقيا محمدا الأول غريبـا فى زمانه بعـد له فى حكمه ، وبمحـاولته ــ قدر طاقته ــ تطبيق الشريعـة الاسلامية فى سائر مملكته .

***

ويمضى المغيلى فى تجليه الدينى واصلاحه الدنيوى فيضع الحـاكم وجها لوجه أمام مسئولياته الحضارية والعمرانية بقوله : ــ

« واذا كان الامام ينظر للمسلمين بالتقوى لا بالهوى ، واضطر لدرء مفسدة أو جلب مصلحة ، بامر لا يخالف الشريعة فليفعله ، لأن المطلوب من الامام ونحوه درء المفاسد وجلب المصـالح بحسب الامكان فى كل زمان ومكان ، فلكل شىء وجه وليس الخبر كالعيان ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تحدث للناس أقضية بعدد ما أحدثوا من فجور .

واذا علمت ذلك ينبغى لك أن تجعل للخراج على تلك البلاد ما فيـه مصلحة المسلمين وعمارة الارض من غير تضييق .

وينتقل الى مسألة حيوية وعلى درجة قصوى من الاهمية وهى مسألة المرافق العامة بقوله : ــ

« ولا يحل لك أن تجعل ذلك (الخراج) على المناضد العـامة التى فيها الارتفاق العام كالمياه والمراعى والطرقات والمنازل المبـاحة فان الله لم يجعل ذلك لسلطان ولا غيره . وان كانت البلاد قد فتحت عنوة .

فاترك ذلك كله ، ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ، وما عنـد الله خير وأبقى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلمون شركاء فى ثلاثة : فى الماء والكلأ والنار » .

***

ولا أريد أن أعلق على هذا الكلام بما يثرثر به من يقيمون من أنفسهم سدنة فى معبد الاشتراكية وهم أبعد الناس عنها علما وعملا واللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

المسألة السادسة

وهى فى أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة ، وانما يأخـذ مال الميت ابن أخته مثلا ٠

والاسقيا يسأل : هل تؤول هذه الاموال لبيت المـــال ، أو تترك بأيدى من حازوها ، ويجبرون على التوارث فيهـــا وفى غيرها على شريعـــة الاسلام ؟

والباحثون يقررون أن البشرية فى فجر حياتها كانت تربط قضـــايا الارث والاستخلاف بالأم ؛ فالأم هى ربة البيت ، وهى التى يعود اليها جميع افراد الاسرة . وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بالاطوار التى لم ينتظم فيها الزواج ؛ فقد يكون للأم عدد من الازواج فى وقت واحد، وفى أمثال هذه الاحوال فان الام وحدها هى التى تمثل الاصالة فى انحدار جميع أفراد العائلة من نسلها ٠

وقد مر المجتمع الافريقى قبل الاسلام بمرحلة ارتباط الارث بالام ، وبعد الاسلام ظلت بعض قبائله على عاداتها السابقة فى مسألة الميراث وهو ما أشار اليه الاسقيا محمد فى صدر هذه المسألة ، وقد تطور ذلك الى أن بعض الناس كانوا يقرون الميراث كما جاء به الاسلام ، ولكن اذا كان فى الورثة كبير استولى على جميع التركة وقال : هذا مال اخوانى وأنا اليوم بمنزلة أبيهم فيعطى الزوجة ونحوها نصيبها ويستولى على البـــاقى حتى اذا مات استولى على تركته الاقرب أيضا ، ثم تطور ، الى أن صاروا لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء ٠

ولما كانت هذه الانظمة أنظمة جاهلية ، فان الاسقيا يسأل : هل هذه الاموال لبيت المال أم لا ؟

كما يسأل عن أناس مسلمين طردهم العدو من بلادهم فدخلوا بـــلاد قوم آخرين وسكنوا عندهم ، وبعد ذلك جلا العدو الذى طردهم ، وبقيت بلادهم خالية خاوية ، لم يرجعوا لها ، فأخذ بعض الناس يزرعونها وأهلها يقولون : لا تزرعوا فى أرضنا الا بالكراء ٠

فقالوا لهم : الارض لله وقد خرجتم منها وتركتموها معطلة ، وكلهم الآن تحت سلطان واحد عادل ، فهل لهم أن يمنعوا أحدا أم لا ؟

هذه الاسئلة جزء من المسألة السادسة وليست كلها ٠

وجوابها : ان القوم الذين من شأنهم انهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة انما يرث منهم الخال وابن الأخت وابن الخال ، ان رأوا أن ذلك حلال وجحدوا شرائع ميراث الاسلام ، فهم كفار ، وان لم يجحدوا الميراث واقروا أنهم عصاة فليؤمروا بالتوبة والرجوع الى فرائض الله فيما يستقبل ، فان أبوا فللسلطان أن يأخذ أموالهم كلها . وان تابوا فأرى ان يترك لهم منها ما يثبت انهم اكتسبوه من الحلال ، وان يقسم معهم ما سواه فيأخذ النصف ويترك النصف ٠

وأما الذين يستولى منهم الكبير على التركة ويقول : هذا مال اخوانى وأنا كأبيهم نحفظ لهم ونربيهم ، فليؤمروا بالتوبة ويأخذ السلطان حقوق ضعفائهم . فيقوم كل بحقه ، والسلطان ينصفه من غريمه ٠

وأما الذين لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء ، فهم كالفريق الاول على ذلك التفصيل ٠

وأما الذين طردهم العدو من أرضهم فتركوا سكناها ، فليس لهم أن يعطلوها ولا أن يأخذوا أجرة ممن يزرع فى مزارعها ويرعى فى مراعيها ، انما لهم ان ينتفعوا بها أو يتركوها لمن ينتفع بها حتى يرجعوا اليها ان شاء الله تعالى ص ٥٧ - ٦١ ٠

***

واذا بدا الاسقيا هنا حريصا على تطبيق قواعد الدين ، فان المغيلى قد حدد له هذه القواعد وجعلها كأنها محسوسة تتلقاها الحواس مثلما يتلقاها العقل بل قبل أن يتلقاها العقل ٠

وهو فيما يتعلق بالارض الخالية قد رجع بها الى أصل الخليقة ، فالأرض لمن يزرعها ، لا احتكار ولا اقطاع ٠

وهؤلاء الذين تركوا بلادهم ثم لم يرجعوا اليها بعد أن زالت أسباب تركهم لها لا يزرعون ولا يتركون غيرهم يزرع ، وهذا - عمليا - تعطيل للارض واضرار بالاقتصاد ٠

أما - نظريا - ففساد فى الجبلة وأنانية .

المسألة السابعة

وهي كالأولى في طولها وتنوع موضوعاتها ، فمن سحر وتنجيم وشعوذة الى تطفيف للكيل وغش في الميزان ، ومن اختلاط الرجال بالنساء الى عري خالص للبنت حتى تتزوج ولو كانت بنت القاضي أو السلطان .

يقول المغيلي للاسقيا : _

ان كل ما ذكرتموه عن بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم ، فواجب على أمير المسلمين وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلهـا .

وهو يشير على الامير باللجوء الى وظيفة المحتسب بقوله : _
واما التطفيف فهو حرام بالكتاب والسنة واجماع علماء الامة ، وواجب على أمير المؤمنين ان يجعل أميرا على الاسواق لحفظ الارزاق ، فيصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصنوج حتى لو فرضت مائة مثقال بالصنوج كلهـا لا ينقص . ولو جمعتها بتلك الصنوج لا تزيد الا مالا بال به من الزيادة والنقص .

وكذلك يجب اصلاح المكايل كلها كبارها وصغارها حتى تكون كلها على نسبة واحدة .

ولابد من عرض الموازين والمكاييل على التغيير في كل حين ، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيء من الوزن أو الكيل فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين .

ثم يدخل في كلام فنى لا يفهمه ولا يهضمه فضلا عن أن يقوله ويكتبه الا المتخصصون المتمرسون بالكيل والميزان في الاسواق الجامعة .

***

وعن مسألة الاختلاط والعري يقول : _
ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء ، وكشف العورات ، فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع .

ومن الصواب الواجب ان تنقل كل امرأة عن مواضع التهمـــة ، وان يجعل الامير أمناء يطوفون بالليل والنهار والطرقات ، فكل من رأوه يتكلم مع أجنبية أو يدخل عندها أو ينظر اليها فلياخذوه وليأتوا به الى المتولى خطة الحسبة ليعلفه ويزجره بما يليق بمثله حسب سوء فعله .

وأما ما ذكرتم من عادة أهل جنى فى أن البكر لا تستر عورتها حتى تتزوج ، فذلك منكر من أكبر المناكر وأقبح القبائح لم يسمع قط بمثله فى شيء من بلاد المسلمين ، فكيف يزعمون انهم مسلمون ؟ !!!

انا لله وانا اليه راجعون .

***

بهذا تنتهى هذه المسألة وهى آخر مسألة فى الكتاب .

وقد ختمه المغيلى بما بدأه به من وعظ الامير بتذكيره ثم بالصـلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : -

فاتق الله تعالى وانظر لنفسك قبل الفوت ، فانه لابد من المـوت قـال تعالى : - « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسـب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعـل الله لكل شيء قـدرا » .

وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيـا الا متاع الغرور » .

صدق الله العظيم ونبيه الكريم ، ونحن على ذلك من الشاهدين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولاقـوة الا بالله العـلى العظيم ص ٧٠ .

***

أما بعد : -

فانى أدع المجال لكلام المغيلى كى يعمل عمله ويفرط حمله ، وينقل شحنته الثمينة من الفكر والحماس والاخلاص والابداع الفنى الى أذهان ومشاعر مستقبليه .

وكل ما أرجوه أن يقرأه بعض ذوى النفوذ فى بلاد العرب والاسلام وأن يعوه ويطبقوه .

كتاب آداب المعلمين

لمحمد بن سحنون

نحن هذه المرة مع التربية بمفهومها الحديث ٠

أقول : « بمفهومها الحديث » واعنيها ؛ فليست التربية الحديثة بضاعة أوربية فحسب ، أو أمريكية فقط ، وانما هى الى ذلك ، بل قبل ذلك وبالتأكيد تراث عربى اســـلامى ، كان موجودا قبل الاســـلام ، ثم نما وترعرع فى الاسلام ٠

واذا كان قد ازدهر فى عصرنا ؛ فلتضافر الجهود فى القديم والحديث عليه ، ولاهتمام الناس فى الشرق والغرب به ٠

ومن الطبيعى — ونحن فى عصر المد العلمى — أن تنشط التربية وتنهض ، شأنها فى ذلك شأن سائر الفروع الاخرى من المعرفة ، كما أن من الطبيعى أن يكون لها رجالها المتخصصون هنا وهناك وهنالك ومعظم جامعات العالم الآن ، تضم بين كلياتها كلية خاصة بالتربية ٠

***

ونستطلع الجهود التربوية فى مغربنا العربى ، فنجد انه زاخر بكتب التراث التى كتبت فى هذا الموضوع ٠

ونحن فى هذه الحلقة مع كتاب من أقدم كتب التربية التى ألفها المغاربة وهو كتاب آداب المعلمين ، كما ســـماه الذين طبعـــوه ، وآداب المعلمين والمتعلمين ، كما سماه الذين درسوه ، لمؤلفه محمد بن سحنون ٠ وسنعرف بالمؤلف أولا وبالكتاب ثانيا ٠

أما المؤلف فهو أبو عبـــد الله محمد بن أبى سعيد عبد السلام بن سعيد ابن حبيب التنوخى ٠

ولد بالقيروان سنة ٢٠٢ هـ ٠

واذا كانت الوسائط فى التربية هى البيت والمدرسة والمجتمع ، فان

الوسط الذى نشأ فيه محمد كان وسطا مرموقا ، فأبوه هو فقيه أفريقيــة بلا منازع .

ولما كان محمد وحيدا ، فقد استقطب اهتمام أبيه به وحل من بؤرة الشعور منه ، وقد كان أبوه بالنسبة اليه أستاذا ومربيا ووالدا ، وليس معنى هذا أنه تولى بنفسه كل شئون تعليمه . فقد أحضر له المعلمين وزودهم بنصائحه التى فصلها على ابنه من وجهة نظره ها هو ذا يقول لواحــد منهم : -

لا تؤدبه الا بالمدح ولطيف الكلام . فليس هــو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف . وانى أرجو أن يكون نسيج وحده وفريد زمانه ، وقد جاء محمد كما تمنى أبوه نسيج وحده وفريد زمانه ، ولا عجب ، فهو بعد أن أخــذ حظه من القرآن والعلوم الضرورية ، تحول الى مجالس الدروس العالية ، فاخذ عن والده . وكان يناظره قال القاضى عياض : -

كان محمد يناظر أباه وكان يشرح بعض كتبه فى حياته ، يفعل ذلك قبل مجىء أبيه الى مجلس العلم ، فاذا جاء أبوه قعد مع الناس يســـمع معهم .

وأيضا أخذ عن الاستاذ الراويه موسى بن معاوية الصمادحى ، وعن الشيخ عبد الله بن أبى حسان اليحصبى تلميذ مالك بن أنس وعن غيرهما من أعلام العقل والنقل فى أفريقية .

***

ولما بلغ سن الثالثة والثلاثين نصحه أبوه بالسفر الى المشرق أداء لفريضة الحج واستزادة من العلم

ووصل محمد فيمن معه الى مصر فأحتفل به فقهاؤها والتفوا حوله فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

منهم أبو رجاء بن أشهب مضيفه ، والمزنى صاحب الامام الشافعى فلما انفض المجلس وكان كثير الازدحام سئل المزنى : كيف رأيت ؟!!

فأجاب : والله ما رأيت أعلم منه ولا أحد ذهنا على حداثة سنه .

وفى يثرب دخل المسجد النبوى الشريف ، فوجد أبا مصعب أحمد ابن أبى بكر الزهرى وهو متكىء لكبر سنه والطلبة يتنازعون لديه فى مسألة من مســائل أمهات الاولاد ، فنبههــم محمد الى نكتة غريبــة ، فاستوى أبو مصعب وقررها ؛ فزاد محمد اخرى ، فالتفت اليه أبو مصعب وسأله : من أى البلاد أنت ؟ قال : من القيروان •

قال أبو مصعب : ينبغى أن تكون أحد الرجلين : اما محمد بن سحنون، واما محمد بن لبـدة بن أخى سحنون ؛ لأن هذا التنكيت لا يخرج الا من ال سحنون ، وعرفه محمـــد بنفسه ، فقام اليه الزهرى وصافحه وأضافه مدة اقامته بيثرب •

وقد لقى بالمدينة من رواة الحديث وأصحاب مالك غير الزهــرى ، يعقوب بن حميد بن كاسب ، ومسلمة بن شبيب النيسابورى وغيرهما •

رجع محمد من رحلته فعكف على التدوين والتأليف ، مما حدث به عن نفسه قوله : ـ دخل على أبى وأنا أؤلف كتاب « تحريم المسكر » فقال : يابنى • انك ترد على أهل العراق وهم قوم لطاف الأذهان سلاط الألسنة فاياك أن يسبقك قلمك الى ما تعتذر منه •

(المدارك لعياض طبعة الرباط ج ٤ ص ٢٠٨)

***

ولم يشغله عكوفه على التأليف عن التدريس لطبقات من الطلاب فى جامع عقبة وفى منزله ، وزاد اقباله على التدريس بعد وفاة أبيه فى رجب سنة ٢٤٠ هـ ؛ فانه حل محله وجلس للتدريس مكانه ، فطبقت شهرته الآفاق وقصده الطلاب من كل مكان حتى صارت القيروان سحنونية . كما سماها المؤرخون فى ذلك الوقت •

***

ولم يكن محمــد عالما فحسب ، بل كان الى علمه صاحب مثل عليا ، وعلى جانب كبير من حسن الخلق •

حكى أبو الحسن القابسى أن رجلا كان يشتم محمدبن سحنون وينال

من عرضـــه ، وربما جاءه فقال له : أحب أن أسارك ، ويشتمه فى أذنه فيقول له محمد سترالله : جزاك الله خيرا ٠

وحدث أن افتقر هذا الرجل ، ولم يجد أمامه أهلا للخير الا محمدا فقصده ، ولما ألقاه محمد عنده أقبـل عليه وسأله عن حاجته ، فقال الرجل : أصلحك الله ، جئتك تائبا مماكنت أفعل ، فقال محمد :

دع هذا واذكر حاجتك ، فقال: والله [illegible] محمد واغنم ؛ ولم يلبث أن كتب له رقعة الى أحد الصيارفة وطلب منه المضى اليه ، فأعطاه عشرين دينارا اشترى منها ما يحتاج اليه ، ولما دلف بما معه الى داره ، سألته زوجتـه عن مصدر هذا الخير ، فقال : هذا مما أعطانيه الرجل الذى كنت أسبه ٠

***

وقد اثنى عليه معاصروه بما هو أهله :

قال القاضى الورع عيسى بن مسكين :«خير من رأيت محمد بن سحنون كان جامعا لخصال من الخير ، منهـا الورع ومعرفة الأثر وكثرة الايثار والتفقد للاخوان » ٠

وقال أيضا : مارأيت بعد سحنون مثل ابنه ٠

وقال المؤرخ القيروانى الكبير محمد بن حارث الخشنى :

كان محمد بن سحنون فى مذهب مالك من الحفاظ المتقدمين ، وفى غيره من المذاهب من المناظرين المتصرفين ، وكان كريما فى نفسه ، سمحا بما فى يده ، جواد بماله وجاهه ، وكان يصـــل من يقصده بالعشرات من الدنانير ، وكان يكتب لمن يعنى به الى الكور فيعطى الاموال الجسيمة وهذا عنه مستفيض عند أهل القيروان ، وكان وجيها فى العامة ، مقدما عند الملوك ، حسن العناية جيد النظر فى الحوادث والملمات

[طبقات علماء افريقية ص ١٢٩ طبعة الجزائر سنة ١٣٣٢ هـ]

ولما تصفح محمد بن عبد الحكم بعض كتبه قال : « هذا رجل سبح فى العلم سبحا » وقد توفى محمد بالساحل سنة ٢٥٦ هـ عن أربع وخمسين

سنة ، وأتى به الى القيروان فخرج معظم أهلها فى جنازته وصلى عليه أمير وقته محمد الثانى بن أحمد الاغلبى ، ودفن بباب نافع على خطوات من ضريح والده وقبراهما هناك من المزارات المشهورة المباركة .

***

من آثار العلمية : ـ

١ ـ كتاب الجامع ، وهو أكبر تصانيفه ، جاء فى أكثر من مائة جزء منها عشرون فى السير ، وخمسة وعشرون فى الامثال ، وعشرة أجزاء فى آداب القضاء ، وخمسون فى الفرائض ، وثمانية فى التاريخ ، والباقى فنون أخرى . اى أنه موسوعة كبيرة .

٢ ـ المسند فى الحديث وهو كبير جداً .

٣ ـ تحريم المسكر

٤ ـ الامامة . قال عيسى بن مسكين : لما وصل كتاب الامامة الذى ألفه محمد بن سحنون الى بغداد كتب بالذهب وأهدى الى الخليفة .

٥ ـ مسائل الجهاد فى عشرين جزءا .

٦ ـ تفسير الموطأ فى أربعة أجزاء .

٧ ـ الرد على أهل البدع فى ثلاثة اجزاء

٨ ـ طبقات العلماء وقد جاء فى سبعة أجزاء

٩ ـ كتاب الاشربة وغريب الحديث فى ثلاثة أجزاء .

١٠ ـ كتابالايمان والرد على أهل الشرك .

١١ ـ ما يجب على المتناظرين من حسن الادب .

١٢ ـ الحجة على القدرية .

١٣ ـ أحكام القرآن .

***

وما ذكرناه الى الآن جزء من كتبه المفقودة .

ومن كتبه الموجودة : ـ

١ ـ أجوبة محمد بن سحنون ، رواية محمد بن سالم القطان عنه .

٢ ـ آداب المعلمين . وقيل المتعلمين ، وقيل آداب المعلمين والمتعلمين ، وهو الأصح ؛ لأنه العنوان المناسب لما جاء فى الكتاب ؛ فهو أجماله أما الكتاب فتفصيله

وهذا تحليله :

يقع الكتاب فى اثنتين وستين صفحة من القطع المتوسط ، وموضوعاته الرئيسية عشرة هى : ـ

١ ـ ما جاء فى تعليم القرآن العزيز ص ٧٥ ٠
٢ ـ ما جاء فى العدل بين الصبيان ص ٨٤ ٠
٣ ـ باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى ، وما ينبغى أن يفعل من ذلك ص ٨٦ ٠
٤ ـ ما جاء فى الأدب ، وما يجوز من ذلك وما لا يجوز ص ٨٨ ٠
٥ ـ ما جاء فى الختم ، وما يجب فى ذلك للمعلم ص ٩٤ ٠
٦ ـ ما جاء فى القضاء فى عطية العيد ص ٩٦ ٠
٧ ـ ما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه ص ٩٧ ٠
٨ ـ ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان ص ٩٨ ٠
٩ ـ ما جاء فى اجارة المعلم ومتى تجب ؟ ص ١١٩ ٠
١٠ ـ ما جاء فى اجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها ص ١٢٦ ٠

***

وقبل أن نستعرض هذه الموضوعات نقول : ـ

ان الطابع السائد عليها هو النقل ، يعطى المؤلف الرأى مدعو ما بنقل من النقول : آية كريمة أو حديث شريف أو رأى لشيخ من شيوخه ، وعلى رأس هؤلاء الشيوخ أبوه ، وقد يناقش أصحاب الآراء فى آرائهم اذا لم تكن مقبولة منه ، بأن تكون مخالفة لرأيه كلية أو جزئية ٠

لكن لذت ،ظرى أنه كثيرا ما يقيس أمرا على أمر ويلحق شبيها بشبيه وربما وازنت هذه الخطة عنده نقوله فأحدثت تعادلية علمية بين النقل والعقل ، وهذه التعادلية ميزه حقيقية من ميزات المنهج الدقيق الذى ارتضاه ابن سحنون ٠

فاذا أضفنا اليها ميزة السبق الى موضوعه والريادة فيه ، اجتمعت له ميزتان عظيمتان ، وهاتان الميزتان لا تجتمعان الا للرواد فى العلوم والفنون ٠

ونرد هذا منه الى تبحره الذى ساعدته عليه وراثته السحنونية وبيئته العلمية ومنزلته الفريدة عند أبيه ، ولم ننس بعد أنه صنعه على عينيه ، ومازال به حتى جاء نسيج وحده وفريد دهره وحتى قال فيه : ما أشبهه بأشهب ٠

وقد جاء فى كتاب الاجوبة بسند محمد بن سالم القطان وهو من تلاميذ ابن سحنون قال: _

سألت محمدا عن مسائل شتى من العلم ، فأجابنى عن جميعها مع اختلاف الآراء فيها ، وقول كل واحد ومذهبه . فقلت له : _

ما أعلمك بآراء أهل العلم !!! وما أحفظك بالخلاف !!! فقال : _

تا لله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على أحد من أهل العلم ممن كان مضى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عهد الخلفاء بعده الى عصرنا هذا من لم أعرفه وأعرف قوله ومن خالفه ، وكأنى أسمع كل واحد منهم ، وكأنهم بازائى حضور ٠

ولا نستغرب هذا من محمـــد برغم ما نحسه فى كلامه من احساس بالذات غير مستحب ، وأكاد أقول : من غرور ٠

ومن يدرى ؟ فقد تكون هذه المبالغات من عمل ابن القطان وهو تلميذه؛ تكبيرا لشيخه بالاصالة ولنفسه بالتبعية ٠

***

والآن الى آداب المعلمين ٠

وهو بلا مقدمة وبلا تمهيد ، فقد بدأه مؤلفه هكذا : _

بسم الله الرحمن الرحيم وصـلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

١ _ ما جاء فى تعليم القرآن العزيز

قال أبو عبد الله محمد بن سحنون : حدثنى أبى سحنون عن عبد الله

ابن وهب عن سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد عن أبى عبد الرحمن السلمى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه ·

وفى رواية (خيركم) بدلا من [أفضلكم]

وعن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرفع الله بالقرآن أقواما ·

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
عليكم بالقرآن ، فانه ينفى النفاق كما تنفى النار خبث الحديد

وعن أنس بن مالك : - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -
ان لله أهلين من الناس · قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : هم حملة القرآن · هم أهل الله وخاصته ·

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -

من تعلم القرآن فى شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه ، ومن تعلمه فى كبره وهو يتفلت عنه ويتركه فله أجره مرتين ·

وعن ابن مسعود قال : - ثلاث لا بد للناس منهم :
لابد للناس من أمير يحكم بينهم ، ولولا ذلك لاكل بعضهم بعضا ، ولابد للناس من شراء المصاحف وبيعها ، ولولا ذلك لقل كتاب الله ، ولابد للناس من معلم يعلم أولادهم ، ويأخذ على ذلك أجرا ، ولولا ذلك لكان الناس أميين ·

***

وقد وصلت بنا هذه النقول الى نقطة حاسمة ، وهى : هل يجوز تقاضى أجر على تعليم القرآن ؟ ·

كلام ابن عباس واضح فى الجواز ·
وعن ابن جريج قال : قلت لعطاء : آآخذ أجرا على تعليم الكتاب ؟ أعلمت أن أحدا كرهه ؟ قال · لا ·

وقال مالك : لا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن ، وان اشترط شيئا كان حلالا جائزا ، ولا بأس بالاشتراط فى ذلك ٠

ويستظهر مالك في افتائه هذا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :ـ

خير ما اتخذتم عليه أجرا كتاب الله ، وما روى من أن سعد بن أبى وقاص كان يعطى الاجارة لمعلم بنيه . وأيضا ما روى من أن صفوان ابن سليم وعطاء بن أبى رباح كانا يعلمان القرآن بالاجارة ، ومضى عليه عمل أهل المدينة ، ودل عليه أيضا حديث : أنكحناكها بما معك من القرآن ٠

***

وفى كتاب « جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان » لأحمد بن أبى جمعة المغراوى المتوفى سنة ٩٢٠ هـ تحقيق وتعليق أحمد جلولى البدوى ورابح بونار طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧٥ م تحت عنوان [باب حكم الاجارة على تعليم القرآن] نقرأ هذا الكلام : ـ

قال الجزولى : أما حكم الاجارة على التعليم والاثابة عليه فاختلف فيه على ثلاثة أقوال : ـ

أجازهما مالك ، ومنعهما أبو حنيفة ، وثالثها : تجوز الاثابة دون الاجارة ٠

والفرق بين الاجارة والاثابة : أن الاجارة فيها الاشتراط مع ضرب الأجل . أما الاثابة فهى ايصال النفع من غير شرط ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

***

واذا كانت النقول السابقة تؤيد وجهة نظر مالك ٠

فان لأبى حنيفة أدلة تتناقض مع أدلة مالك ، وعليها عول فيما ذهب اليه :

من ذلك قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا » ، وما روى عن عبادة بن الصامت قال : كنت أعلم القرآن جماعة من أهل الصفة فأعطانى أحدهم قوسا أجاهد بها . فسألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

لى : أتريد أن يطوقك الله تعالى بطوق من النار ؟!!
يقول ابن حبيب : انما كان ذلك أول الاسلام ، والقرآن قليل فى صدور الرجال ٠

ويظهر ان وجه الحق فى هذه المسألة مع مالك وأصحابه ، لأنه اذا كان بيع المصحف ثمنا للرق والخط ، فان أجرة تعليم القرآن ثمن لشغل بدن متولى ذلك ٠

وعلى رأى مالك أسست الكتب المؤلفة فى تعليم القرآن بل وغير القرآن من الفقه واللغة والنحو والادب والتاريخ وغير ذلك من العلوم والفنون ٠

***

٢ ـ ما جاء فى العدل بين الصبيان

وهذا الموضوع تقدمى بمقدار ما هو منطقى ٠
روى محمد بن سحنون بسنده عن أنس بن مالك قال : ـ أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الامة فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين ٠

وعن الحسن قال : اذا قوطع المعلم على الاجرة فلم يعدل بينهم [الصبيان] كتب من الظلمة ٠

وهذان النقلان نص على ما ينبغى أن يراعيه المعلم وهو يعلم من التزام بالعدل فى معاملة تلاميذه ، فلا يفتح عينيه على تلميذ ، ويغمضهما كلتيهما أو واحدة منهما عن آخر ٠

وهذا الالتزام بالعدل تطبيق للحديث الشريف : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالمعلم راع فى تلاميذه ، واذا كان من حقه عليهم أن يطيعوه ويحترموه ، فان من حقهم عليه ان يسوى بينهم فى رعايتهم وتعليمهم ٠

أجل ، فالمعلم ـ أى معلم ـ يتولى تعليم تلاميذه القرآن والعربية وأصول الدين ، كما يتولى تهذيب أخلاقهم بالفضائل والمكارم ، وهو لن يحقق ذلك كله أو بعضه ، ولن يصل فيه الى شىء ايجابى ، ما لم يكن أخلاقيا فى سلوكه ٠

ولقـــد كان أسلافنا يتحرون جهدهم فى اختيار من يعلم أولادهم ، فلا يرتضون لهذه المهمة الخطيرة الا من عرف بحسن خلقـــه واشـــتهر بالاستقامة والعدالة مع الخبرة التامة بطرق التدريس والعلم الشامل الكامل بالقرآن وعلومه ٠

أوصى الصحابى الجليل عتبة بن أبى سفيان معلم أولاده حين سلمهم اليه فقال : يا عبد الصمد ٠ ليكن اصلاحك لولدى اصلاحك لنفسك ؛ فان عيونهم معقودة بعينيك ٠ الحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت علمهم كتاب الله ، ورووهم حديث رسوله ، وحفظهم الشعر العف ، كن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، واياك أن تتكل على عذر منى ، فقد اتكلت على كفاية منك [العقد الفريد حـ ١ ص ١٩٦] ٠

***

٣ ـ باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى وما ينبغى أن يفعل من ذلك

وهذا البـــاب استقصاء عن المؤلف لظاهرة كانت موجودة فى وقته ، وقد تخلخلت الآن الا من بعض الكتاتيب فى البوادى والقـــرى ؛ فقد كان الصغار يكتبون على الالواح الخشبية البيضاء بالحبر الاسود ، أو على الالواح الارتوازية السمراء بالطباشير صلدا أو هشا ، ثم يحفظون ما يكتبون ، وبعـــد حفظه وتسميعه يمحونه ، ليكتبوا مكانه ، ويظهر أن بعض الصبيـــة كانوا يستعملون أقدامهم فى هذا المحو ، ولم يقـــرهم على ذلك محمد بن سحنون ، وانما أشار بوعاء مملوء بالماء يغمس فيه التلاميذ ألواحهم ، ثم يمحون المكتوب فيها باليد أو بالمنديل ٠

ولا بأس من لعق المكتوب باللسان ، وازالته بالثوب ٠
ولقد كان ابراهيم النخعى يقول : ـ
من المروءة أن يرى المداد فى شفة المرء وثوبه ٠
ص ٨٦ ـ ٨٨ ٠

***

٤ ـ ما جاء فى الادب وما يجوز من ذلك وما لا يجوز

يقصد بالادب هنا التأديب ، وهو التهذيب عن طريق الضرب ٠

روى المؤلف عن سيف بن محمد قال : -
كنت جالسا عند سعد الخفاف ، فجاءه ابنه يبكى ، فقال : ما يبكيك يا بنى ؟

قال : ضربنى المعلم . قال : أما والله لأحدثنكم اليوم .
حدثنى عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -
شرار أمتى معلمو صبيانهم ، اقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين .

قال محمد بن سحنون : - وانما ذلك لأنه يضربهم اذا غضب وليس على منافعهم ، ولا بأس أن يضربهم على منافعهم ، ولكن لا يجوز له أن يضرب رأس الصبى ولا وجهه ، كما لا يجوز له أن يمنعه من طعامه وشرابه اذا أرسل وراءه .

ولا يجاوز بالادب ثلاثا الا ان يأذن الاب فى أكثر من ذلك اذا آذى ابنه أحدا .

ويؤدبهم على اللعب والبطالة . وفى هذه الحالة لا يجاوز بالادب عشرة . وأما على القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثا ، يتولى هو ذلك بنفسه ، ولا يتركه لغيره كعريف أو نحوه .
وانما وقف عند عشرة فى أكثر الادب ؛ لأن عشرة غاية الادب .

قال رسول الله صلى الله عليه سلم : « لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة الا فى حد » .

***

ويستطرد محمد من أدب المعلم للصبى الى أدب الرجل لزوجه ، والى أدب السيد لعبده ، ثم يختم بدرة من درر النبى صلى الله عليه وسلم ، وبآية من آيات بلاغته وهدايته ، وذلك قوله عليه السلام : -
« يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق » .
ولعل الربط بين تأديب الرجل ابنه وتصدقه غير واضح .
لكن الحديث نوع من المعادل الموضوعى ، فالابن المؤدب صدقة كبيرة على المجتمع ، وربما أربت فى قيمتها وقدرتها على ملايين الملايين من العملة

٥ ـ ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم

جرت العادة بأن الصبى اذا ختم سورة طويلة او أكثر من القرآن يستحق المعلم قبل ولى الامر مبلغا يسمى ختمة ٠

وقد كنا في الكتاب ندفع ونحن مسرورون ختمة لجزء [عم] وختمة لجزء [تبارك] وختمة لجزء [قد سمع] وختمة لربع القرآن وللتلثيه وللنصفه وللثلثيه وللثلاثة ارباعه ، أما ختمه كله فكان يعتبر عيدا او يوم تخرج ، وكان أولياء أمورنا يغدقون على سيدنا بهذه المناسبة العظيمة اغداقا كبيرا ٠

كان ذلك عرفا ، والعرف قانون كما نعرف ٠

***

لكن ماذا كان من شأن السلف في ذلك ؟

روى أن سحنون قضى بسبعة دنانير في ختمة البقرة ٠

أما ابنه محمد فيقول : ـ تجب الختمة اذا قاربها الصبى وجاوز الثلثين . ولما سئل عن ختمة النصف قال : لا أرى ذلك يلزم ص ٩٤

ولم تكن قيمة الختمة محددة ، وانما ذلك على قدر يسر الرجل وعسره٠

٦ ـ ما جاء في عطية العيد

سئل محمد بن سحنون عن عطية العيد ، وهى ما يسمى الآن بالعيدية فقال : لا أعرف ما هى الا أن يتطوعوا بها ، ولا تجوز للمعلم اذا سألها ٠

يقول المؤلف : الا أن تكون المسألة منه على وجه المعروف ، أى من قبيل الانسانية ، ومن باب التكافل الاجتماعى فى المناسبات الدينية ٠

***

والربط بين اهداء الصبيان للمعلم ، وبين تخليتهم اى منحهم اجازة العيد ، هذا الربط مكروه شرعا ، لأن الهدية حينئذ تكون سبب التخلية ، وفى ذلك ما فيه من فساد التربية ومن شبهة الرشوة ص ٩٦ ٠

٧ ـ ما ينبغى ان يخلى الصبيان فيه

يستطرد المؤلف الى ذلك فيقول : انها فى عيد الفطر يوم واحد ، ولابأس ان يأذن لهم بثلاثة أيام ، وفى عيد الاضحى ثلاثة أيام ، ولا بأس أن يأذن لهم خمسة أيام ٠

ولما سئل عن ارسال الصبيان بعضهم فى طلب بعض ، قال : لا أرى ذلك يجوز للمعلم الا أن يأذن له آباؤهم ، أو تكون المواضع قريبة لا يشتغل الصبى فى ذلك ·

وعلى المعلم أن يتعاهد الغائبين بنفسه فى وقت انقلاب الصبيان ، ويخبر أولياءهم أنهم لم يجيئوا ص ٩٧ ـ ٩٨ ·

وكما لا يجوز للمعلم ارسال الصبيان بعضهم فى طلب بعض ، لا يجوز له أن يرسلهم فى حوائجه الخاصة به ص ١٠٩ ·

٨ ـ ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان

هنا نجد أن المؤلف يضع المعلم وجها لوجه أمام مسئولياته التربوية ، ويطلب تفرغه التام لها ، فهو لا يسمح له بأن يشتغل عن الصبيان ولو بالكلام ، الا أن يكون فى وقت لا يعرضهم فيه ، فلا بأس أن يتحدث وهو فى ذلك ينظر اليها ويتفقدهم ص ٩٨ ·

وفى مكان آخر من نفس الموضوع يقول : ـ

وليلزم المعلم الاجتهاد ، وليتفرغ لهم ، فلا تجوز له الصلاةعلىالجنائز ولا عيادة المرضى الا فيما لا بد منه ممن يلزمه النظر فى أمره ، لأنه أجير لا يدع عمله ص ١٠٠ ·

وقد سئل : هل ترى للمعلم ان يكتب لنفسه كتب الفقه ؟ فقال :

أما فى وقت فراغه من الصبيان فلا بأس أن يكتب لنفسه وللناس مثل ان يأذن لهم فى الانقلاب ، وأما ما داموا حوله فلا ، أى لا يجوز له ذلك ، وكيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النظر فيه الى ما لا يلزمه ؟!!! الا ترى أنه لا يجوز له أن يوكل تعليم بعضهم الى بعض ، فكيف يشتغل بغيرهم؟!!

وابن سحنون يحبذ أن يكتب الصبى للناس الكتب والرسائل ، فهذا مما يخرجه أى مما يساعد على تخريجه ويكسبه مهارات مميزة ·

وإذا كان المطلوب من المعلم انما هو اقراء الصبيان القرآن واعرابه والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل . قال من المرغوب فيه منه أن يعلمهم الحساب والغريب والعربية ، ومن الشعر وكلام العرب ما لا يكون فيه لحن . ولا بأس من أن يعلمهم الخطب اذا أرادوا ، لكن لا يعلمهم ألحان القرآن ؛ لأن مالكا قال . ـ لايجوز أن يقرأ القرآن بالالحان ·

وليجعل الكتب من الضحى الى وقت الانقلاب ، ولا بأس أن يملى بعض التلاميذ على بعض ، لأن ذلك منفعة لهم ، وليتفقد املاءهم ، ولا يجوز له أن ينقلهم من سورة الى سورة حتى يحفظوها باعرابها وكتابتها ·

قال سحنون : ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة المفروضة والمسنونة كركعتى الفجر والوتر وصلاة العيدين والاستسقاء والخسوف وصلاة الجنائز والضحى والتهجد ·

وقد سئل مالك عن تعليم الصبيان فى المسجد فقال : لا أرى ذلك يجوز ؛ لأنهم لا يتحفظون من النجاسة ·

ويحبذ سحنون أن تعلم المرأة المرأة ، لأنه لا يرضى عن التعليم المختلط قال : ـ وأكره للمعلم أن يعلم الجوارى ، ولا يخلطهن مع الغلمان ، لأن ذلك فساد لهم ·

لكن أيأخذ المعلم صبيانه بقول بعضهم على بعض فى الأذى ؟ يجيب سحنون بقوله : ـ لا أرى هذا الا أن يكونوا صبيانا قد عرفهم بالصدق فيقبل قولهم ويعاقب به · ص ٩٨ ـ ١١٨ ·

٩ ـ ما جاء فى اجارة المعلم

وقد سبق أن استطردنا الى أصل هذه القضية فى أول فقرة ، وما هنا ليس الا تفريعات عليها واستطرادات لها ·

وسنجد أن ابن سحنون يكثر من القياس واعمال الرأى والفكر قال محمد : وكتب شجرة بن عيسى الى سحنون يسأله عن المعلم يستأجر على

صبيان يعلمهم فيمرض أحد الصبيان ، او يريد أبوه أن يخرج به الى سفر أو غيره فقال : -

اذا استؤجر ســـنة معلومة ، فقد لزمت آباءهم الاجارة خرجوا أو أقاموا .

قال محمد ، مثل الرضاع ، اذا استأجر الرجل لولده من يرضعه ثم مات الأب أو الصبى ، فان عبد الرحمن روى عن مالك أن الاجارة تنتقض ، ويكون ما بقى فى مال الصبى ان كان له مال ، ويكـــون ذلك موروثا عن الميت ، وان مات الصبى أخذ الاب باقى الاجارة .

وروى أشهب عن مالك أن تلك العطية نفذت للصبى ، فان مات الأب كانت للصبى ، وان مات الصبى كان ما بقى موروثا عن الصبى كأنه مال له ، وكذلك أجرة المعلم مثل هذا والله أعلم .

قال محمد :وهذا قولى ، وهو القياس

ونلاحظ أن محمد بن سحنون يبرز رأيه ويبرره بقوله : (وهذا هو القياس) .

***

وها هى ذى الدروس الخصوصية على طريقة المجموعات سبق بهـــا ماضينا التعليمى حاضرنا وان اختلفت الدوافع اليها فى القــديم عنها فى الحديث ، فهى فى القديم كانت بسبب قلة المعلمين ، أما فى وقتنــا الحاضر فدوافعها اقتصادية بحتة .

قال سحنون : وقد سئل بعض علماء الحجاز - منهم ابن دينـــــار وغيره - أن يستأجر المعلم لجماعة ، وأن يفرض على كل واحد ما ينوبه ؟
فقال : يجوز اذا تراضى بذلك الآباء ، لأن هذا ضرورة ، ولابد للناس منه ، وهو أشبه .

***

وانظر قارئى العزيز الى التسهيل فى تكميل المعلم الناشىء تعليمـــه مثلما نجده الآن من التحاق خريجى المعلمين بكليات التربية أو نظام الانتساب

بالنسبة لحملة الثانوية بشرط أن يعطى لوظيفته التى يأكل منها عيشه حقها ولا يقصر فى أدائها قال : -

- ولا بأس أن ينظر فى العلم فى الاوقات التى يستغنى الصبيان عنه مثل أن يصيروا الى الكتب واملاء بعضهم على بعض ٠

***

واذا كان قد مر افتراض موت الصبى أو موت أبيه ، فاننا هنا أمام افترض موت المعلم نفسه ، وبموته تنفسخ الاجارة طبعا ، وكذلك اذا مات أحد من الصبيان ، لكن قيل ان الاجارة لا تنفسخ ، وان على المعلم فيما له مقاصة فى التعليم ، وعلى ابى الصبى أن يأتى بمن يعلمه المعلم تمام السنة، والا كانت له الاجارة كاملة ٠

***

يورد المؤلف ذلك ثم يقول فى غير قليل من تحقيق الذاتية : -

الأول كلام عبد الرحمن وعليه العمل ، وانما ذلك بمنزلة الراحلة بعينها ، اذا هلكت انفسخ الكراء ، ولا يجوز أن يأتى بمثلها ولا يشترط عليه ذلك والله أعلم ٠

***

ونجد نوعا من المتابعة أو التفتيش على المعلم ، كما نجد نظام الحوافز مطبقا فى قول محمد :

اذا استظهر الصبى القرآن كله ، أكثر فى العطية للمعلم مما اذا قرأه نظرا ، واذا لم يتهج الصبى ما يملى عليه ، ولم يفهم حروف القرآن لم يعط المعلم شيئا ، وأدب ومنع من التعليم اذا عرف بهذا وظهر تفريطه ٠

***

ولا يظن ظان ان ختم القرآن معناه حفظ الصبى له كما هو معروف فى عصرنا ، وانما معناه حسن قراءة الصبى له واقامة لسانه به ٠

يقول المؤلف : ـ

تنازع المغيرة وابن دينار ، وكلاهما من علماء الحجاز عن الصبى يختم القرآن عند المعلم ، فيقول الاب : أنه لا يحفظ ، فقال المغيرة : ـ اذا كان أخذ القرآن كله عنده وقرأه الصبى كله نظرا فى المصحف ، وأقام حروفه ، فان اخطأ منه اليسير الذى لا بد منه مثل الحروف ونحوها ، فقد وجبت للمعلم الختمة ، وهى على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ·

يقول محمد : وهو الذى أحفظ من قول مالك ·

وقال ابن دينار : سمعت مالكا يقول : ـ تجب للمعلم الختمة على قدر يسر الرجل وعسره ، يجتهد فى ذلك ولى النظر للمسلمين ·

وما ذكرناه معناه أن قراءة القرآن ـ لا استظهاره ـ كانت هى الشائعة فى زمن المؤلف ·

يقول أبو بكر بن العربى : ـ ما رأيت بعينى اماما يحفظ القرآن .

ولا رأيت فقيها يحفظه الا اثنين ، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه ، وعلقت القلوب اليوم بالحروف وضيعوا الحدود خلافا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه انفاذ لقدر الله ، وتحقيق لتوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيين لنبوته ، وعضد لمعجزته ·

١٠ ـ اجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها

قال سحنون : قلت لابن القاسم : ـ أرأيت المصحف ، يصح أن يستأجر ليقرأ فيه ، فقال : لا بأس به ، لان مالكا قال : لا بأس ببيعه ، وانما يباع الحبر والورق والعمل قال : ولا أرى أن تجوز اجارة كتب الفقه ، لأن مالكا كره بيعها ، لأن فيه اختلاف العلماء : قوم يجيزون ما يبطل قوم ·

قال محمد : لا أرى بأسا باجارتها وبيعها ، ولا أرى أن يجوز بيع كتب الشعر ولا النحو ولا أشباه ذلك ، ولا أن تجوز اجارة من يعلم ذلك ، وقال مالك : لا أرى اجارة من يعلم الفقه والشعر .

وروى بعض أهل الاندلس : انه لا بأس بالاجارة على تعليم الفقه والفرائض والشعر والنحو . وهو مثل القرآن ، فقال :

كره ذلك مالك واصحابنا ، وكيف يشبه القرآن ، والقرآن له غاية ينتهى اليها وما ذكرت ليس له غاية ينتهى اليها ؛ والفقه والعلم أمر قد اختلف فيه ، والقرآن هو الحق الذى لا شك فيه ، والفقه لا يستظهر مثل القرآن ، فهو لا يشبهه ، ولا غاية له ولا أمد ينتهى اليه ص ١٣٦ .

***

وهذه صورة محددة من صور القطاع الخاص أو المدارس الخاصة يقول : - واذا استأجر الرجل معلما على صبيان معلومين جاز للمعلم أن يعلم معهم غيرهم ، اذا كان ذلك لا يشغله عن تعليم هؤلاء الذين استؤجر لهم .

واذا استؤجر المعلم على صبيان معلومين سنة ، فعلى أولياء الصبيان كراء موضع المعلم .

قال : - ولا بأس بالرجل يستأجر الرجل أن يعلم ولده الخط والهجاء وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يفادى بالرجل يعلم الخط .

***

انتهى الكتاب .

وقد تخطيت مسألة [أبا جاد] التى هى [أبجد] لأنها مسألة خرافية غير معقولة .

حدث بعضهم عن سحنون قال : سمعته يقول : لا أرى للمعلم أن يعلم [أبا جاد] وقد سمعت حفص بن غياث يحدث أن [أبا جاد] أسماء أسماء الشياطين ألقوها على السنة العرب فى الجاهلية فكتبوها .

وينسبون الى ابن عباس قوله : قوم ينظرون فى النجوم يكتبون [ابا جاد] ، أولئك لاخلاق لهم .

وقد عقد السيد محمد المرتضى الزبيدى فى كتابه « تاج العروس من جواهر القاموس » فصلا طويلاً لكلمة (بجد) بين فيه أصل الكلمة وآراء

علماء اللغة فيها ، فمن كلامه فى ذلك قوله : - قيل انها أسماء شياطين ، وقيل هى أسماء أولاد سابور ، وقيل غير ذلك ٠

وقال قطرب : هو [أبو جاد] وانما حذفت واوه وألفه ؛ لأنه وضع لدلالة المتعلم ، فكره التطويل والتكرار ، واعادة المثل مرتين فكتبوا [أبجد] بغير واو ، ولا ألف [-تاج العروس مادة بجد جـ ٢ ص٢٩٤]

والقول ما قال قطرب ، فان [أبا جاد] هى أبجد ، وابجد هى ألف باء الإبجدية العربية . ولعلها اختصار لأبجد هوز حطى كلمن
الى آخر هذه الرموز التى لازلنا نستعملهـا فى مقـدمات الكتب بدلا من الارقام حتى لا تختلط أرقام المقدمة بأرقام صفحات الكتاب

***

أما بعد

فهذا الكتاب كان - فى حدود علمنا - أول كتاب يؤلف عن تعـليم الصبيان ، فلا عجب أن جاء بعده الطوفان ممثلا فى رسالة أبى الحسن على بن خلف القابسى المفصلة لاحكام المعلمين والمتعلمين ، والتى حققهـا الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى وطبعتها دار المعارف بمصر ٠

وفى القرن الخامس الهجرى نجد أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى المعافرى المتوفى سنة ٥٤٦ هـ ، وله آراء سديدة وطريفه فى التربية والتعليم ٠

ثم جاء الشوشاوى حوالى القرن السابع الهجرى ، وألف كتابا نفيسا كان مصدرا أساسيا فى التربية والتعليم لمن جاء بعده من المعلمين والمربين٠

كمـا جاء أحمد بن أبى جمعة المغراوى المتوفى سنة ٩٢٠ هـ١٥١٤ م وألف كتابه [جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان] وفى سنة ٩٥٧ هـ ألف ابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ ١٥٦٧ م أكمل وأشمل كتاب فى هذا الباب وهو [تحديد المقـال فى آداب وأحكام وفوائد يحتاج اليها مؤدبو الاطفال] ٠

وقد حققه أخيرا الدكتور سليمان اسحاق الاستاذ بكلية التربية جامعة المنيا واثبت به سبق الهيثمى الى كثير من نظريات التربية الحديثة فى أمريكا وأوربا ٠

***

والخلاصة انه يمكن القول بان هذه الكتب قد تضافرت على اعطاء صورة حية لطرق ونظم التعليم وقت تأليفها ، ومن هنا كانت اهميتها مهما كانت بساطتها ودرجة بداهتها ، وليس حتما أن تكون مشابهة أو مطابقة لنظمنا العصرية ، فلكل عصر نظمه ، ولكل زمان ومكان تقاليده ، وما ثبتت جدارته من هذه النظم والتقاليد يمضى مع الزمن فى تفاعل وتطور وايجابية ٠

« اما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » صدق الله العظيم ٠

خاتمـــة

هذه الخاتمة وقفة وليست خاتمة ، وقفة لالتقاط الانفاس ثم استئناف دراسة ما يتهيألى من التراث المغربى وهو كثير كثير ٠

ولا يفوتنى أن أنبه الى اننى لم ألتزم فيما عرضته هنا المنهج التاريخى؛ فقد ختمت بابن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ ، وبدأت بابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ ٠

ولى الحق فى ذلك مادمت لا أعرض كتبا تعالج موضوعا واحدا ، أو تدور حول محور واحد ، انما هى كتب فى موضوعات متفرقة لا يجمع بينها الا انها تراث مغربى ٠

ولهذا آثرت فى ترتيبها مراعاة كتابتى لها ، فما كتبته أولا جاء اول ، وما كتبته ثانيا جاء ثانيا وهكذا ٠

ولقد كان هذا كافيا ـ من وجهة نظرى ـ فى ترتيبها ، فالصدق الفنى يتحقق لها بذلك ٠

ولو أننى رحت انسقها بعيدا عن تواريخ تاليفها لكذبت على نفسى وعليها ولاهدرت تطورى معها ٠

***

والى اللقاء مع مجموعة أخرى من التراث الادبى للمغرب العربى ، واذا كان هذا أملا ، فاننى أدعو الله أن يأخذ بيدى فيه وأن يحققه لى آمين ٠

عبده قلقيله

١٠ من رمضان ١٣٩٨ هـ
١٤ من أغسطس ١٩٧٨ م

كتب صدرت للمؤلف

١ - النقد الأدبى فى العصر المملوكى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٢
٢ - القاضى الجرجانى والنقد الأدبى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ [نفد
٣ - النقد الأدبى فى المغرب العربى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٣
٤ - القاضى الجرجانى (على بن عبد العزيز)
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤
٥ - مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٤
٦ - نقد النقد فى التراث العربى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٥
٧ - النقد الأدبى عند القاضى الجرجانى
مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٦
- خط سير الادب العربى مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧
٩ - لغـــويات مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧
١٠- التراث الادبى للمغرب العربى مكتبة عالم الكتب سنة ١٩٧٩

شكر وتقـــدير

تفضل شيخنا الجليل النبيل الاستاذ احمد الحمنـــاوى فراجع بروفات الطبع على أصل الكتاب ثم أذن بطبعه

فله الشكر منى والثواب من الله تعالى

❊ ❊ ❊

وأجزل الشكر وأعمق التقدير للفنيين فى مطبعة دار الهنا بالقاهرة وعلى رأسهم الاخ الفاضل الحاج كمال حامد المشرف الفنى بالمطبعة ، لاخراجهم هذا الكتاب اخراجا نموذجيا مثاليا .

عبده قلقيله

دار الهنا للطباعة : ٩٧١٣٢٧